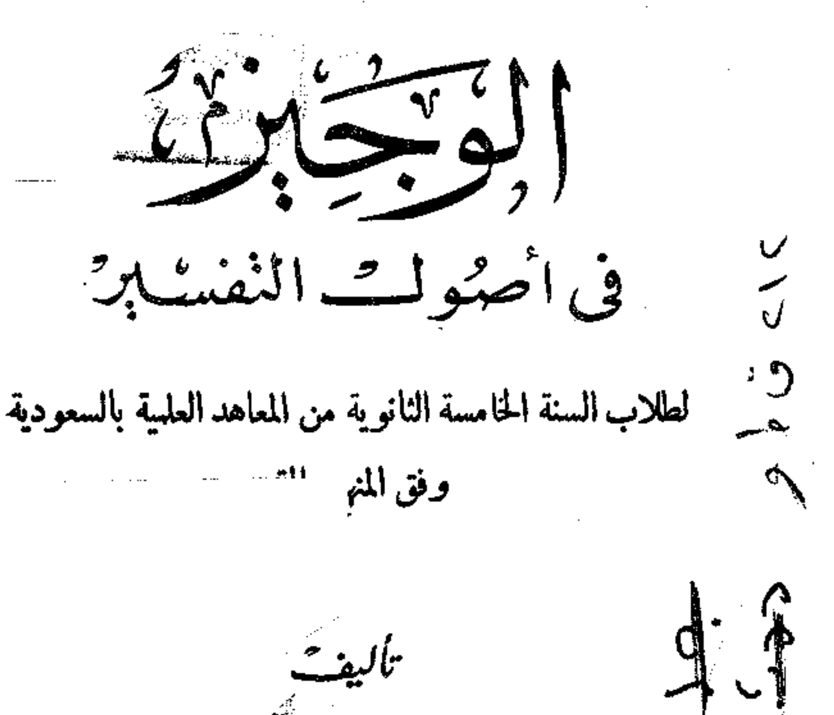
الادارة العامة

للمعاهد العلمية والكليات



الوجيز

في أصول التفسير

لطلاب السنة الخامسة الثانوية من المعاهد العلمية بالسعودية

وفق المنهج

تأليف

مناع القطان

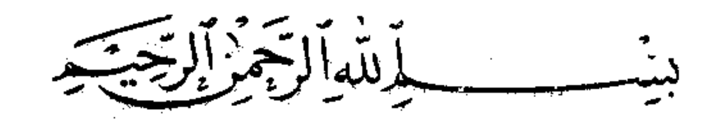
المدرس بكلية الشريعة بالرياض

١٣٧٩ هـ

المطبعة السلفية ومكتبتها

٢١ شارع الفتح بالروضة تليفون ٨٩٨٣٦٤





إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد ،

فهذه مذكرة فى أصول التفسير أوجزت فيها بعض المباحث حسب المنهج المقرر فى المعاهد العلمية بالسعودية ، متوخيا فيها سهولة اللفظ ، ووضوح المعنى ، وجودة السبك ، وحسن الترتيب ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، والله المستعان .

المؤلف

مناع القطان

المدرس بكلية الشريعة بالرياض

١
القواعد التى يحتاج اليها المفسر

لا بد فى تناول أى علم من العلوم من معرفة أسسه العامة ومميزاته الخاصة حتى يكون الطالب له على بصيرة ، وبقدر ما يتمكن الإنسان من آلة العلم بقدر ما يحرز من نصر فيه ، حيث يلج فصوله من أبوابها وقد أعطى مفاتيحها . وإذا كان القرآن الكريم قد تنزل بلسان عربى مبين فإن القواعد التى يحتاج إليها المفسر فى فهم القرآن ترتكز على قواعد لغة الضاد ، وفهم أسسها ، وتذوق أسلوبها ، وإدراك أسرارها . ولذلك كله فصول متناثرة فى فروع العربية ، إلا أننا نستطيع أن نجمع موجزا لأهم ما يجب معرفته فى الأمور الآتية :

١ ــ الضمائر

أصل وضع الضمير للاختصار ، فهو يغنى عن ذكر ألفاظ كثيرة ، ويحل محلها مع سلامة المعنى وعدم التكرار ، فقد قام فى قوله تعالى ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ مقام عشرين كلمة لو أتى بها مظهرة هى المذكورة فى صدر الآية ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ٥ ٣٥ ـ الأحزاب ﴾

ولا بد لضمير الغيبة من مرجع يعود إليه ـ ويكون المرجع ملفوظا به سابقا عليه مطابقا له ـ وهذا هو الكثير الغالب ـ كقوله ﴿ ونادى نوح ابنه ٥ ٤٢ ـ هود ﴾ أو يكون ما سبق متضمنا له كقوله ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآنُ قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ٥ ٨ ـ المائدة ﴾

فإن ضمير (هو) يعود على العدل الذى يتضمنه لفظ (اعدلوا) أى العــدل أقرب للتقوى - أو دالا عليه بالالتزام كقوله ﴿ فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان * ١٧٨ - البقرة ﴾ فالضمير فى (إليـه) يعود على العـافى الذى يستلزمه (عفى)

وقد يكون المرجع متأخرا لفظا لا رتبة كقوله ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى * ٦٧ - طه ﴾ أو لفظا ورتبة كما فى باب ضمير الشأن والقصة ونعم وبئس كقوله ﴿ قل هو الله أحد * ١ - الإخلاص ﴾ وقوله ﴿ فإذا هى شاخصة * ٩٧ - الأنبياء ﴾ وقوله ﴿ بئس للظالمين بدلا * ٥٠ - الـكهف ﴾ وقوله ﴿ساء مثلا القوم * ١٧٧ - الأعراف﴾ أو متأخرا دالا عليه كقوله ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم * ٨٣ - الواقعة ﴾ فضمير الرفع مضمر يدل عليه الحلقوم ، والتقدير : فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم - أو مفهوما من السياق كقوله ﴿ كل من عليها فان * ٢٦ - الرحمن ﴾ أى على الأرض

وربما عاد الضمير على اللفظ دون المعنى كقوله ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب * ١١ - فاطر ﴾ فالضمير فى (عمره) المراد به عمر معمر آخر - أو عاد على المعنى فقط كقوله ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الـكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين * ١٧٦ - النساء ﴾ فالضمير فى (كانتا) لم يتقدمه لفظ تثنية يعود عليه لأن الـكلالة تقع على الواحد والاثنين والجمع ، فثنى الضمير الراجع إليها حمــلا على المعنى - وقد يثنى الضمير ويعود على أحد المذكورين كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * ٢٢ - الرحمن ﴾ وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب - أو يعود على ملابس ما هو له كقوله ﴿ لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها * ٤٦ - النازعات ﴾ أى ضحى يومها لا ضحى العشية لأن العشية لا ضحى لها

٢ ـ التعريف والتنكير

للتنكير مقامات : منها : إرادة الوحدة كقوله ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى * ٢٠ - القصص ﴾ أى رجل واحد - أو إرادة النوع كقوله ﴿ ولتجدنهم

أحرص الناس على حياة ٭ ٩٦ ـ البقرة ﴾ أى نوع من الحياة وهو طلب الزيادة فى المستقبل ، لأن الحرص لا يكون على الماضى ولا على الحاضر . أو هما معا كقوله ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ٭ ٤٥ ـ النور ﴾ أى كل نوع من أنواع الدواب من نوع من أنواع الماء ، وكل فرد من أفراد الدواب ، من فرد من أفراد النطف ، أو التعظيم كقوله ﴿ فأذنوا بحرب من الله ٭ ٢٧٩ ـ البقرة ﴾ أى حرب عظيمة ، أو التكثير كقوله ﴿ أئن لنا لأجرا ٭ ٤٢ ـ الشعراء ﴾ أى أجرا وافرا ، أو هما معا كقوله ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ٭ ٤ ـ فاطر ﴾ أى رسل عظام ذوو عدد كثير ، أو التحقير كقوله ﴿ من أى شئ خلقه ٭ ١٨ ـ عبس ﴾ أى من شئ حقير مهين ، أو التقليل كقوله ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ٭ ٧٢ براءة ﴾ أى رضوان قليل منه أكبر من الجنات لأنه رأس كل سعادة

وأما التعريف فله مقامات تختلف باختلاف كل نوع من أنواع التعريف

ويكون بالإضمار لأن المقام مقام التكلم ، أو الخطاب ، أو الغيبة ـ وبالعلمية لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم يخصه ـ أو لتعظيمه كقوله ﴿ محمد رسول الله ٭ ٢٩ الفتح ﴾ ، أو إهانته كقوله ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ٭ ١ المسد ﴾ ، وبالإشارة لبيان حاله فى القرب كقوله ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ٭ ١١ لقمان ﴾ أو لبيان حاله فى البعد كقوله ﴿ وأولئك هم المفلحون ٭ ٥ البقرة ﴾ أو لقصد تحقيره بالقرب كقوله ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ٭ ٦٤ العنكبوت ﴾ ، أو لقصد تعظيمه بالبعد كقوله ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ٭ ٢ البقرة ﴾ أو التنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير بما يرد بعده من أجلها كقوله ﴿ هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ٢ : ٥ البقرة ﴾ وبالموصولة لكراهة ذكره باسمه سترا عليه ، أو غير ذلك كقوله ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما ٭ ١٧

الاحقاف ﴾ وقوله ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ۝ ٢٣ يوسف ﴾ أو لارادة العموم كقوله ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ۝ ٦٩ العنكبوت ﴾ ، أو الاختصار كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ۝ ٦٩ الأحزاب ﴾ إذ لو عدد أسماء القائلين لطال الكلام ـ وبالألف واللام للإشارة إلى معهود ذكري ، كقوله ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري ٣٥ النور ﴾ أو معهود ذهني كقوله ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ١٨ الفتح ﴾ أو معهود حضوري كقوله ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ٣ المائدة ﴾ أو لاستغراق الأفراد كقوله ﴿ إن الإنسان لفي خسر ٢ العصر ﴾ بدليل الاستثناء ـ أو لاستغراق خصائص الأفراد كقوله ﴿ ذلك الكتاب ٢ البقرة ﴾ أي الكتاب الكامل في الهداية الجامع لجميع صفات الكتب المنزلة بخصائصها ، أو لتعريف الماهية والحقيقة والجنس ، كقوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شئ حي ٣٠ الانبياء ﴾

وإذا ذكر الاسم مرتين فله أربعة أحوال : لأنه إما أن يكونا معرفتين ، أو نكرتين ، أو الأول نكرة والثاني معرفة ، أو بالعكس

١ ــ فإن كانا معرفتين فالثاني هو الأول غالبا كقوله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ٦ و ٧ الفاتحة ﴾

٢ ــ وإن كانا نكرتين فالثاني غير الأول غالبا كقوله ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ٥٤ الروم ﴾ فإن المراد بالضعف الأول النطفة ، وبالثاني الطفولية ، وبالثالث الشيخوخة ، وقد اجتمع القسمان في قوله تعالى ﴿ فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ٥ و ٦ الانشراح ﴾ ولذلك روى عن ابن عباس : لن يغلب عسر يسرين ، لان العسر الثاني أعاده بأل ، فكان عين الأول ، ولما كان اليسر الثاني غير الاول لم يعده بأل

٣ ــ وإن كان الأول نكرة ، والثاني معرفة ، فالثاني هو الأول حملا على العهد . كقوله ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول ٥ و ٦ المزمل ﴾

٤ — وإن كان الأول معرفة ، والثانى نكرة ، توقف المراد على القرائن ، فتارة تقوم قرينة على التغاير . كقوله ﴿ ويوم تقوم الساعة ، يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ٥٥ الروم ﴾ ، وتارة تقوم قرينة على الاتحاد ، كقوله ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا ٢٧ ، ٢٨ الزمر ﴾

٣ — الإفراد والجمع

بعض ألفاظ القرآن يكون إفراده لمعنى خاص ، وجمعه لإشارة معينة ، أو يؤثر جمعه على إفراده أو العكس

فمن ذلك أننا نرى بعض الألفاظ لم يات فى القرآن إلا مجموعا ، وعند الاحتياج إلى صيغة المفرد ، يستعمل مرادفه كلفظة (اللب) فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله ﴿ إن فى ذلك لذكرى لأولى الالباب ٢١ الزمر ﴾ ، ولم يجئ فى القرآن مفرده ، بل جاء مكانه (القلب) كقوله ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ٣٧ ق ﴾ . ولفظة (الكوب) لم تأت مفردة وقد أتى الجمع ﴿ وأكواب موضوعة ١٤ الغاشية ﴾

وعكس هذا النوع ألفاظ لم تأت إلا مفردة فى كل موضع من مواضع القرآن . ولما أريد جمعها جمعت فى صورة من الروعة ليس لها مثال ، كقوله تعالى ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ١٢ الطلاق ﴾ ولم يقل سبحانه وسبع أرضين لما فى ذلك من الخشونة واختلال النظم

ومن ذلك لفظة (السماء) ذكرت تارة بصيغة الجمع وتارة بصيغة الإفراد ، لنكت مناسبة ، فحيث أريد العدد ، أتى بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة ، كقوله ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ١ الحشر ﴾ وحيث أريد الجهة أتى بصيغة الإفراد كقوله ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ١٦ الملك ﴾

ومن ذلك (الريح) ذكرت مجموعة ومفردة ، فتذكر مجموعة فى سياق الرحمة وتفرد فى سياق العذاب ، وذكر فى حكمة ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمنافع ، ويقابل بعضها الآخر أحيانا . لينشأ ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات . فكانت فى

الرحمة رياحا . وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد ، ولا معارض لها ولا دافع ، وقد أخرج ابن أبى حاتم وغيره عن أبى بن كعب قال : كل شىء فى القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكل شئ فيه من الريح فهو عذاب . ولهذا ورد فى الحديث « اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا » وما خرج عن ذلك فهو لنكتة أخرى

ومن ذلك إفراد (النور) وجمع (الظلمات) وإفراد (سبيل الحق) وجمع (سبل الباطل) لأن طريق الحق واحدة ، وطرق الباطل متشعبة متعددة . ولهذا وحد (ولى المؤمنين) وجمع (أولياء الكافرين) لتعددهم كما فى قوله تعالى ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ٢٥٧ البقرة ﴾ وقوله ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ١٥٣ الأنعام ﴾

ومن ذلك (المشرق والمغرب) بالإفراد والتثنية والجمع . فالإفراد باعتبار الجهة والإشارة إلى ناحيتى الشرق والغرب كقوله ﴿ رب المشرق والمغرب ٩ المزمل ﴾ . والتثنية باعتبار مطلعى ومغربى الشتاء والصيف كقوله ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ١٧ الرحمن ﴾ . والجمع باعتبار مطلع كل يوم ومغربه ، أو مطلع كل فصل ومغربه . كقوله ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ٤٠ المعارج ﴾

٤ — مقابلة الجمع بالجمع أو بالمفرد

مقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضى مقابلة كل فرد من هذا ، بكل فرد من هذا ، كقوله ﴿ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم ٧ نوح ﴾ أى استغشى كل منهم ثوبه . وقوله ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن ٢٣٣ البقرة ﴾ أى كل واحدة ترضع ولدها . وتارة يقتضى ثبوت الجمع لكل فرد من أفراد المحكوم عليه كقوله ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ٤ النور ﴾ أى اجلدوا كل واحد منهم ذلك العدد . وتارة يحتمل الأمرين فيحتاج إلى دليل يعين أحدهما

أما مقابلة الجمع بالمفرد . فالغالب ألا يقتضى تعميم المفرد وقد يقتضيه كما فى قوله تعالى ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ١٨٤ البقرة ﴾ أى على كل واحد لكل يوم طعام مسكين

٥ ـــ ما يظن أنه مترادف وليس من المترادف

من ذلك (الخوف والخشية) فالخشية أعلى من الخوف . وهى أشد منه لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية : أى يابسة . وهو فوات بالكلية . والخوف من قولهم ناقة خوفاء أى بها داء . وهو نقص وليس بفوات . كما أن الخشية تكون من عظم المخشى وإن كان الخاشى قويا . فهى خوف يشوبه تعظيم . والخوف يكون من ضعف الخائف . وإن كان المخوف أمرا يسيرا . ومادة الخشية : الخاء والشين والياء ، فى تصاريفها تدل على العظمة ، فالشيخ : السيد الكبير . والخيش : الغليظ من اللباس . ولذا وردت الخشية غالبا فى حق الله تعالى . كقوله ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ٢٨ فاطر ﴾ وقوله ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ٣٩ الأحزاب ﴾ وأما قوله تعالى ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ٥٠ النحل ﴾ فقد جاء فى وصف الملائكة بعد ذكر قوتهم وشدة خلقهم ، فالتعبير عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظا شدادا فهم بين يديه تعالى ضعفاء ، ثم أردفه بالفوقيـــة الدالة على العظمة ، فجمع بين الأمرين اللذين تتضمنهما الخشية دون إخلال بقوة بأسهم ، وهما خوفهم من ربهم مع تعظيمه سبحانه

ومن ذلك (الشح والبخل) فالشح أشد من البخل لأنه بخل مع حرص ، وذلك فيما يكون عادة

ومن ذلك (السبيل والطريق) فالسبيل أغلب وقوعا فى الخير ، أما الطريق فلا يكاد يراد به الخير إلا مقترنا بما يدل على ذلك من وصف أو إضافة كقوله ﴿ يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ٣٠ الأحقاف ﴾ قال الراغب فى مفرداته : السبيـــل : الطريق الذى فيه سهولة فهو أخص

ومن ذلك (مد وأمد) قال الراغب : أكثر ما جاء الإمداد فى المحبوب كقوله ﴿ وأمددناهم بفاكهة ٢٢ الطور ﴾ والمد فى المكروه كقوله ﴿ ونمد له من العذاب مدا ٧٩ مريم ﴾

٦ — السؤال والجواب

الأصل فى الجواب أن يكون مطابقا للسؤال ، وقد يعدل فى الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيها على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك ، وهو المسمى بأسلوب الحكيم ، ويمثلون له بقوله تعالى ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ١٨٩ البقرة ﴾ فقد سألوا رسول الله ﷺ عن الهلال : لم يبدو دقيقا مثل الخيط ثم يتزايد قليلا قليلا حتى يمتلىء ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فأجيبوا ببيان حكمة ذلك تنبيها على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه

وقد يجئ الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه كقوله تعالى ﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ٦٤ الأنعام ﴾ فى جواب ﴿ من ينجّيكم من ظلمات البر والبحر ٦٣ الأنعام ﴾

وقد يجىء أنقص لاقتضاء الحال ذلك كقوله تعالى ﴿ قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ١٥ يونس ﴾ فى جواب ﴿ ائت بقرآن غير هـذا أو بدله ﴾ لأن التبديل أسهل من الاختراع ، وقد نفى إمكانه فالاختراع أولى

والسؤال إذا كان لطلب معرفة تعدى إلى المفعول الثانى تارة بنفسه وتارة بعن وهو أكثر كقوله ﴿ ويسألونك عن الروح ٨٥ الإسراء ﴾ وإذا كان لاستدعاء مال ونحوه فإنه يعدى بنفسه أو بمن وبنفسه أكثر كقوله ﴿ واسـألوا ما أنفقتم ١٠ الممتحنة ﴾ وقوله ﴿ واسألوا الله من فضله ٣٢ النساء ﴾

٧ — الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

الاسم يدل على الثبوت والاستمرار . والفعل يدل على التجدد والحدوث . ولكل منهما موضعه الذى لا يصلح له الآخر ، فيأتى التعبير مثلا فى النفقة بالفعل كقوله

﴿ الذين ينفقون فى السراء والضراء ، ١٣٤ آل عمران ﴾ ولم يقل (المنفقون) ويأتى التعبير فى الإيمان بالاسم كقوله ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورســـوله ، ١٥ الحجرات ﴾ لأن النفقة أمر فعلى شأنه الحدوث والتجدد ، بخلاف الإيمان فإنه له حقيقة تقوم بدوام مقتضاها ، والمراد بالتجدد فى الماضى الحصول مرة بعـد أخرى ، وفى المضارع أن من شأنه أن يتكرر ويقع مرة بعد أخرى ، ومضمر الفعل فى ذلك كمظهره ولهذا قالوا : إن سلام إبراهيم عليه السلام أبلغ من سلام الملائـكة فى قوله تعـالى ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، ٢٥ الذاريات ﴾ فالنصب على أنه مصدر ساد مسد الفعل ، وأصله نسلم عليك سلاما ، وهذه العبارة مؤذنة بحدوث التسليم منهم ، بخلاف رده (قال سلام) فإنه معدول به إلى الرفع على الابتداء . وخبره محذوف والمعنى : عليكم سلام . للدلالة على إثبات السلام ، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذا بأدب الله تعالى ، وهو أيضا من إكرامه لهم

٨ — العطف

وهو ثلاثة أقسام :ـ

١ — عطف على اللفظ ، وهو الأصل

٢ — وعطف على المحل ، وجعل منـه الـكسائى قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ، ٦٩ المائدة ﴾ فجعـل (الصابئون) عطفا على محل إن واسمها ، ومحلها الرفع بالابتداء

٣ — وعطف على التوهم ، ومنه قوله تعالى ﴿ لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن ، ١٠ المنافقون ﴾ فى قراءة غير أبى عمرو بجزم (أكن) نخرجه الخليل وسيبويه على أنه عطف على التوهم ، لأن معنى لولا أخرتنى فأصدق ومعنى أخرنى أصدقْ واحد ، كأنه قيل : إن أخرتنى أصدق وأكن ، كما خرج الفارسى عليه قراءة قنبل ﴿ إنه من يتق ويصبر ، ٩٠ يوسف ﴾ بسكون الراء ، لأن من الموصولة فيها معنى الشرط

واختلف فى جواز عطف الخبر على الإنشاء وعكسه ، فمنعه الأكثرون ، وأجازه جماعة مستدلين بقوله تعالى ﴿ وبشر المؤمنين ◦ ١٣ الصف ﴾ عطف على (تؤمنون) فى الآية ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ◦ ١٠ ، ١١ الصف ﴾ وخرجه الآخرون على أن (تؤمنون) بمعنى آمنوا ، فهو خبر بمعنى الإنشاء ، فصح عطف الإنشاء عليه . (وبشر) كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبتكم الله وينصركم . وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك . وفائدة التعبير بالخبر فى موضع الأمر الإيذان بوجوب الامتثال ، وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين

واختلف أيضا فى جواز العطف على معمولى عاملين ، واستدل المجيزون بقوله تعالى ﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ◦ ٣ : ٥ الجاثية ﴾ فقوله (واختلاف الليل والنهار . . . آيات لقوم يعقلون) من العطف على معمولى عاملين سواء نصبت أو رفعت ، فالعاملان إذا نصبت : (إن) و (فى) أقيمت الواو مقامهما ، فعملت الواو الجر فى (اختلاف الليـــل والنهار) والنصب فى (آيات) وإذا رفعت فالعاملان : (الابتداء) و (فى) عملت الواو الرفع فى (آيات) والجر فى (اختلاف) ذكر هذا الزمخشرى

واختلف أيضا فى جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، وخرج عليه المجيزون قراءة حمزة ﴿ واتقوا الله الذين تساءلون به والأرحام ◦ ١ النساء ﴾ بجر الأرحام عطفا على الضمير ، وجعلوا منه قوله تعالى ﴿ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ◦ ٢١٧ البقرة ﴾ على أن (المسجد) معطوف على ضمير (به)

٢

الفرق بين المحكم والمتشابه[1]

أنزل الله الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، فرسم للخلق العقيدة السليمة والمبادئ القويمة فى آيات بينات واضحة المعالم ، وذلك من فضل الله على الناس حيث أحكم لهم أصول الدين لتسلم لهم عقائدهم ويستبين لهم الصراط المستقيم ، وتلك الآيات هى أم الكتاب التى لا يقع الاختلاف فى فهمها سلامة لوحدة الأمة الإسلامية وصيانة لكيانها ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ٣ فصلت ﴾

وقد تأتى هذه الأصول الدينية فى أكثر من موضع بالقرآن مع اختلاف اللفظ والعبارة والأسلوب إلا أن معناها يكون واحدا ، فيشبه بعضها الآخر ويوافقه معنى دون تناقض ، أما ما عدا تلك الأصول من فروع الدين فإن فى آياتها من العموم والاشتباه ما يفسح المجال أمام المجتهدين الراسخين فى العلم ، حتى يردوها إلى المحكم ببناء الفروع على الأصول ، والجزئيات على الكليات - وإن زاغت بها قلوب أصحاب الهوى - وبهذا الإحكام فى الاصول والعموم فى الفروع كان الإسلام دين الإنسانية الخالد الذى يكفل لها خير الدنيا والآخرة على مر العصور والأزمان

الإحكام العام والتشابه العام

المحكم لغة : مأخوذ من حكمت الدابة وأحكمت : بمعنى منعت ، والحكم : هو الفصل بين الشيئين ، فالحاكم يمنع الظالم ويفصل بين الخصمين ، ويميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، ويقال : حكمت السفيه وأحكمته : إذا أخذت على يديه ، وحكمت

---

(١) راجع هذا الفصل فيما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية عن المحكم والمتشابه والتأويل فى التدمرية وغيرها من رسائله

الدابة وأحكمتها : إذا جعلت لها حكمة : وهي ما أحاط بالحنك من اللجام لانها تمنع الفرس عن الاضطراب ، ومنه الحكمة : لانها تمنع صاحبها عما لا يليق ، وإحكام الشيء : اتقانه ، والمحكم : المتقن

فإحكام الكلام : اتقانه بتمييز الصدق من الكذب فى أخباره ، والرشد من الغي فى أوامره : والمحكم منه : ما كان كذلك

وقد وصف الله القرآن كله بأنه محكم على هذا المعنى فقال ﴿ الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ٥ ١ ، ٢ هود ﴾ وقال ﴿ الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم ٥ ١ ، ٢ يونس ﴾ فالقرآن كله محكم : أى أنه كلام متقن فصيح يميز بين الحق والباطل والصدق والكذب . وهذا هو الإحكام العام

والمتشابه لغة : مأخوذ من التشابه : وهو أن يشبه أحد الشيئين الآخر ، والشبهة : هو ألا يتميز أحد الشيئين من الآخر لما بينهما من التشابه عينا كان أو معنى ، قال تعالى ﴿ وأتوا به متشابها ٥ ٢٥ البقرة ﴾ أى يشبه بعضه بعضا لونا لا طعما وحقيقة ، وقيل متماثلا فى الكلام والجودة

وتشابه الكلام : هو تماثله وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضا ، وقد وصف الله القرآن كله بأنه متشابه على هذا المعنى فقال ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ٥ ٢٣ الزمر ﴾ فالقرآن كله متشابه : أى أنه يشبه بعضه بعضا فى الكمال والجودة ، ويصدق بعضه بعضا فى المعنى ويماثله . وهذا هو التشابه العام

وكل من المحكم والمتشابه بمعناه المطلق المتقدم لا ينافى الآخر . فالقرآن كله محكم بمعنى الإتقان ، وهو متماثل يصدق بعضه بعضا ، فإن الكلام المحكم المتقن تتفق معانيه وإن اختلفت ألفاظه ، فإذا أمر القرآن بأمر لم يأمر بنقيضه فى موضع آخر ، وإنما يأمر به أو بنظيره ، وكذلك الشأن فى نواهيه وأخباره . فلا تضاد فيه ولا اختلاف ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ٥ ٨٢ النساء ﴾

الإحكام الخاص والتشابه الخاص

وهناك إحكام خاص وتشابه خاص ذكرهما الله فى قوله ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ۞ ٧ آل عمران ﴾ وفى معناهما وقع الاختلاف على أقوال أهمها : —

ا — المحكم : ما عرف المراد منه — والمتشابه : ما استأثر الله بعلمه

ب — المحكم : مالا يحتمل إلا وجها واحدا — والمتشابه : ما احتمل أوجها

ج — المحكم : ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان — والمتشابه : مالا يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان برده إلى غيره

ويمثلون للمحكم فى القرآن بناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه ووعده ووعيده ، وللمتشابه : بمنسوخه وكيفيات أسماء الله وصفاته التى فى قوله ﴿ الرحمن على العرش استوى ۞ ٥ طه ﴾ وقوله ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه ۞ ٨٨ القصص ﴾ وقوله ﴿ يد الله فوق أيديهم ۞ ١٠ الفتح ﴾ وقوله ﴿ وهو القاهر فوق عباده ۞ ١٨ الأنعام ﴾ وقوله ﴿ وجاء ربك ۞ ٢٢ الفجر ﴾ وقوله ﴿ وغضب الله عليهم ۞ ٦ الفتح ﴾ وقوله ﴿ رضى الله عنهم ۞ ٨ البينة ﴾ وقوله ﴿ فاتبعونى يحببكم الله ۞ ٣١ آل عمران ﴾ إلى غير ذلك ، وأوائل السور المفتتحة بحروف المعجم وحقائق اليوم الآخر وعلم الساعة

الاختلاف فى معرفة المتشابه

وكما وقع الاختلاف فى معنى كل من المحكم والمتشابه الخاصين وقع الاختلاف فى إمكان معرفة المتشابه ، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم فى الوقف فى قوله تعالى ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ هل هو مبتدأ خبره (يقولون) والواو للاستئناف ، والوقف على قوله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ؟ أو هو معطوف (ويقولون) حال ، والوقف على قوله ﴿ والراسخون فى العلم ﴾

فذهب إلى الأول (الاستئناف) طائفة منهم أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وغيرهم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، مستدلين بمثل ما رواه الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ « وما يعلم تأويله إلا الله ويقـــول الراسخون فى العلم آمنا به » .

وبقراءة ابن مسعود « وإن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به »

وبما دلت عليه الآية من ذم متبعى المتشابه ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة . وقد أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ـ إلى قوله تعالى ـ أولوا الألباب ﴾ قال رسول الله ﷺ « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم » .

وذهب إلى الرأى الثانى (العطف) طائفة على رأسهم مجاهد ، فقد روى عنه أنه قال : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته ، أقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها . واختار هذا القول النووى ، فقال فى شرح مسلم : إنه الأصح لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته

التوفيق بين الرأيين بفهم معنى التأويل

بالرجوع إلى معنى (التأويل) يتبين أنه لا منافاة بين الرأيين ، فان لفظ التأويل ورد لثلاثة معان :

(الأول) صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو اصطلاح أكثر المتأخرين

(الثانى) التأويل بمعنى التفسير ، فهو الكلام الذى يفسر به اللفظ حتى يفهم معناه

(الثالث) التأويل : هو الحقيقة التى يؤول اليها الكلام ، فتأويل ما أخبر الله به عن ذاته وصفاته هو حقيقة ذاته المقدسة وما لها من حقائق الصفـــات ، وتأويل ما أخبر الله به عن اليوم الآخر هو نفس ما يكون فى اليوم الآخر . وعلى هذا المعنى جاء قول عائشة : كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم

ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن . تعنى قوله تعالى ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ٣ ـ النصر ﴾ . والحديث فى الصحيحين

فالذين يقولون بالوقف على قوله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ويجعلون ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ استئنافاً ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثالث ، أى الحقيقة التى يؤول اليها الكلام ، فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله

والذين يقولون بالوقف على قوله ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ على أن الواو للعطف وليست للاستئناف ، إنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثانى أى التفسير ، ومجاهد إمام المفسرين حتى قال الثورى فيه : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، فاذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به أنه يعرف تفسيره

وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين المذهبين فى النهاية ، وإنما الأمر يرجع إلى الاختلاف فى معنى التأويل

ففى القرآن ألفاظ متشابهة تشبه معانيها ما نعلمه فى الدنيا ، ولكن الحقيقة ليست كالحقيقة ، فأسماء الله وصفاته وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه فى اللفظ والمعنى الكلى إلا أن حقيقة الخالق وصفاته ليست كحقيقة المخلوق وصفاته ، والعلماء المحققون يفهمون معانيها ويميزون الفرق بينها ، وأما نفس الحقيقة فهى من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله . ولهذا لما سئل مالك وغيره من السلف عن قوله تعالى ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ قالوا : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وكذلك قال ربيعة بن عبد الرحمن شيخ مالك قبله : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومن الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا الإيمان ، فبين أن الاستواء معلوم ، وأن كيفية ذلك مجهولة

وكذلك الشأن بالنسبة إلى أخبار الله عن اليوم الآخر ، ففيها ألفاظ تشبه معانيها ما هو معروف لدينا فى الدنيا إلا أن الحقيقة غير الحقيقة ، ففى الآخرة ميزان ، وجنة ونار . وفى الجنة ﴿ أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من

خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ١٥ القتال ﴾ . ﴿ فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ١٣ : ١٦ ـ الغاشية ﴾ . وذلك نعلمه ونؤمن به ، وندرك أن الغائب أعظم من الشاهد ، وما فى الآخرة يمتاز عما فى الدنيا ، ولكن حقيقة هذا الامتياز غير معلومة لنا ، وهى من التأويل الذى لا يعلمه إلا الله

التأويل المذموم

والتأويل المذموم بمعنى : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به ، إنما لجأ اليه كثير من المتأخرين مبالغة منهم فى تنزيه الله تعالى عن مماثلته للمخلوقين كما يزعمون . وهذا زعم باطل أوقعهم فى مثل ما هربوا منه أو أشد ، فهم حين يؤولون اليه بالقدرة مثلا إنما قصدوا الفرار من أن يثبتوا للخالق يداً لأن للمخلوقين يداً فاشتبه عليهم لفظ اليد فأولوها بالقدرة . وذلك تناقض منهم . لأنهم يلزمهم فى المعنى الذى أثبتوه نظير ما زعموا أنه يلزم فى المعنى الذى نفوه ، لأن العباد لهم قدرة أيضاً . فان كان ما أثبتوه من القدرة حقاً ممكناً كان إثبات اليد لله حقاً ممكناً أيضاً ، وإن كان إثبات اليد باطلا ممتنعاً لما يلزمه من التشبيه فى زعمهم كان إثبات القدرة باطلا ممتنعاً كذلك . فلا يجوز أن يقال : إن هذا اللفظ مؤول بمعنى أنه مصروف عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح

وما جاء عن أئمة السلف وغيرهم من ذم للمتأولين إنما هو لمثل هؤلاء الذين تأولوا ما يشتبه عليهم معناه على غير تأويله وإن كان لا يشتبه على غيرهم

٣
العام والخاص

للنظم التشريعية والأحكام الدينية مقاصد تهدف اليها ، وقد يجتمع للحكم التشريعى خصائص تجعله عاماً يشمل كل الأفراد ، أو ينطبق على جميع الحالات ، وقد يكون لذلك القصد غاية خاصة فالتعبير عنه يتناول بعمومه الحكم ثم يأتى ما يبين حده أو يحصر نطاقه ، والبيان العربى فى تلوين الخطاب وبيان المقاصد والغايات مظهر من مظاهر قوة اللغة واتساع مادتها . فاذا ورد هذا فى كلام الله المعجز كان وقعه فى النفس عنوان إعجاز تشريعى مع الإعجاز اللغوى

تعريف العام وصيغ العموم

العام : هو اللفظ المستغرق لما يصلح له من غير حصر ، وله صيغ تدل عليه :

منها « كل » كقوله تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ١٨٥ ، آل عمران ﴾ وقوله ﴿ الله خالق كل شىء ١٠٢ ، الأنعام ﴾ ومثلها جميع

ومنها : المعرف بأل التى ليست للعهد كقوله ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ١ ، ٢ - العصر ﴾ أى كل إنسان ، بدليل قوله بعد ﴿ إلا الذين آمنوا ٣ ، العصر ﴾ وقوله ﴿ وأحل الله البيع ٢٧٥ ، البقرة ﴾ وقوله ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ٣٨ المائدة ﴾

ومنها : النكرة فى سياق النفى والنهى كقوله ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ١٩٧ ، البقرة ﴾ وقوله ﴿ فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ٢٣ ، الإسراء ﴾ أو فى سياق الشرط كقوله ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ٦ ، براءة ﴾

ومنها : الذى والتى وفروعهما كقوله ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما ١٧ ، الأحقاف ﴾ . أى كل من قال ذلك بدليل قوله بعد بصيغة الجمع ﴿ أولئك الذين حق

عليهم القول ١٨ ـ الأحقاف ﴾ وقوله ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ١٦ ـ النساء ﴾ وقوله ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ٤ ـ الطلاق ﴾

وأسماء الشرط كقوله تعالى ﴿ فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ٠ ١٥٨ ـ البقرة ﴾ للعموم فى العاقل ، وقوله ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ٠ ١٩٧ ـ البقرة ﴾ للعموم فى غير العاقل ، وقوله ﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ٠ ١٥٠ ـ البقرة ﴾ للعموم فى المكان ، وقوله ﴿ أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ٠ ١١٠ ـ الإسراء ﴾

ومنها : اسم الجنس المضاف إلى معرفة كقوله ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ٦٣ ـ النور ﴾ أى كل أمر لله ، وقوله ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ٠ ١١ ـ النساء ﴾

أقسام العام

والعام على ثلاثة أقسام :

الأول : الباقى على عمومه ، وقد قال القاضى جلال الدين البلقينى : إن مثاله عزيز ، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص ، ومثل له بقوله تعالى ﴿ والله بكل شىء عليم ٠ ١٧٦ ـ النساء ﴾ وقوله ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ٠ ٤٩ ـ الكهف ﴾ وبقوله ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ٠ ٢٣ ـ النساء ﴾ الآية ، فإنه لا خصوص فيها

الثانى : العام المراد به الخصوص ـ كقوله تعالى ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ٠ ١٧٣ ـ آل عمران ﴾ فالمراد بالناس الأولى القائل ، والمراد بالناس الثانية المقول له ، لا العموم فى كل منهما ـ وكقوله تعالى ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ٠ ٣٩ ـ آل عمران ﴾ والمنادى جبريل كما فى قراءة ابن مسعود ، وقوله ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ٠ ١٩٩ ـ البقرة ﴾ والمراد بالناس إبراهيم أو سائر العرب غير قريش

الثالث : العام المخصوص ، وأمثلته فى القرآن كثيرة جدا ، وستأتى ، ومنه قوله

تعالى ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ⁕ ١٨٧ - البقرة ﴾ وقوله ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ⁕ ٩٧ - آل عمران ﴾

الفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص

والفرق بين العام المراد به الخصوص والعام المخصوص من وجوه ، أهمها :

١ — أن العام المراد به الخصوص لا يراد شموله لجميع الأفراد من أول الأمر ، لا من جهة تناول اللفظ ولا من جهة الحكم ، بل هو ذو أفراد استعمل فى فرد واحد منها أو أكثر - وأما العام المخصوص فأريد عمومه وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لا من جهة الحكم ، فالناس فى قوله ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ وإن كان عاما إلا أنه لم يرد به لفظا وحكما سوى فرد واحد ، أما لفظ الناس فى قوله ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ فهو عام أريد به ما يتناوله اللفظ من الأفراد ، وإن كان حكم وجوب الحج لا يتناول إلا المستطيع منهم خاصة

٢ — والأول مجاز قطعا لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلى واستعماله فى بعض أفراده ، بخلاف الثانى فالأصح فيه أنه حقيقة

تعريف الخاص وبيان المخصص

والخاص : يقابل العام : فهو الذى لا يستغرق الصالح له من غير حصر

والتخصيص : هو إخراج بعض ما تناوله اللفظ العام . والمخصص : إما متصل : وهو الذى لم يفصل فيه بين العام والمخصص له بفاصل ، وإما منفصل . وهو بخلافه - والمتصل خمسة

أحدها : الاستثناء . كقوله تعالى ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا ⁕ ٤ ، ٥ - النور ﴾ وقوله ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا

من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ۞ ٣٣ - ٣٤ - المائدة ﴾

الثانى : الصفة : كقوله تعالى ﴿ وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ۞ ٢٣ - النساء ﴾ فقوله ﴿ اللاتى دخلتم بهن ﴾ صفة لنسائكم ، والمعنى أن الربيبة من المرأة المدخول بها محرمة على الرجل حلال له إذا لم يدخل بها

الثالث : الشرط : كقوله ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ۞ ١٨٠ - البقرة ﴾ فقوله ﴿ إن ترك خيرا ﴾ أى مالا ، شرط فى الوصية ، وقوله ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ۞ ٣٣ - النور ﴾ أى قدرة على الأداء أو أمانة وكسب

الرابع : الغاية : كقوله ﴿ ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ۞ ١٩٦ - البقرة ﴾ وقوله ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ۞ ٢٢٢ - البقرة ﴾

الخامس : بدل البعض من الكل : كقوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ۞ ٩٧ - آل عمران ﴾ فقوله ﴿ من استطاع ﴾ بدل من الناس ، فيكون وجوب الحج خاصا بالمستطيع

والمخصص المنفصل : ما كان فى موضع آخر من آية أو حديث أو إجماع أو قياس . فما خص بالقرآن كقوله تعالى ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ۞ ٢٢٨ - البقرة ﴾ فهو عام فى كل مطلقة حاملا كانت أو غير حامل ، مدخولا بها أو غير مدخول بها ، خص بقوله ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ۞ ٤ - الطلاق ﴾ وبقوله ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة ۞ ٤٩ - الأحزاب ﴾

وما خص بالحديث كقوله تعالى ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ۞ ٢٧٥ - البقرة ﴾ خص من البيع البيوع الفاسدة التى ذكرت فى الحديث ، كما فى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنه قال « نهى رسول ﷺ عن عسب الفحل » وفى الصحيحين عن ابن عمر :

« أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع حبل الحبلة » وكان بيعا تبتاعه الجاهلية ، كان الرجل يبتاع الجزور إلى أن تُنتَج الناقة ثم تنتج التى فى بطنها » ـ واللفظ للبخارى ، إلى غير ذلك من الحديث

وخص من الربا العرايا الثابتة بالسنة فإنها مباحة ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ رخص فى بيع العرايا بخرصها فيما دون خمسة أوسق أو فى خمسة أوسق » متفق عليه

وما خص بالإجماع آية المواريث ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين « ١١ ـ النساء » ﴾ خص منها بالإجماع الرقيق لأن الرق مانع من الإرث

وما خص بالقياس آية الزنا ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة « ٢ ـ النور » ﴾ خص منها العبد بالقياس على الأمة التى نص على تخصيصها عموم الآية فى قوله تعالى ﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب « ٢٥ ـ النساء » ﴾

تخصيص السنة بالقرآن

وقد يخصص القرآن السنة ، ويمثلون لذلك بما أخرجه أبو داود والترمذى وحسنه واللفظ له عن أبى واقد الليثى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميت » فهذا الحديث خص بقوله تعالى ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين « ٨٠ ـ النحل » ﴾

ما يشمله الخطاب

اختلف فى الخطاب الخاص بالرسول ﷺ كقوله تعالى ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين « ١ ـ الأحزاب » ﴾ وقوله ﴿ يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر « ٤١ ـ المائدة » ﴾ هل يشمل الأمة أم لا يشملها ؟

ا ـ فذهب قوم إلى أنه يشملها باعتباره قدوة لها

ب ـ وذهب آخرون إلى أنه لا يشملها لأن الصيغة تدل على اختصاصه بها

واختلفوا أيضا فى الخطاب من الله تعالى بيأيها الناس كقوله ﴿ يأيها الناس اتقوا

ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ٥ ١ ـ النساء ﴾ هل يشمل الرسول أم لا ؟
والصحيح فى ذلك أنه يشمله لعمومه وإن كان الخطاب قد ورد على لسانه ليبلغ غيره

وقد فصل بعضهم فقال : إن اقترن الخطاب بقل لم يشمله لأن ظاهره البلاغ كقوله ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ٥ ١٥٨ ـ الأعراف ﴾ وإلا شمله

وما ورد من الخطاب مضافا إلى الناس أو المؤمنين كقوله ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ٥ ١٣ ـ الحجرات ﴾ وقوله ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ٥ ٩٠ ـ المائدة ﴾

فالمختار فى الأول أنه يشمل الكافر والعبد والأنثى

والمختار فى الثانى أنه يشمل الأخيرين فقط لمراعاة التكليف بالنسبة إلى الجميع ، وخروج العبد عن بعض الأحكام كوجوب الحج والجهاد إنما هو لأمر عارض كفقره واشتغاله بخدمة سيده

ومتى اجتمع المذكر والمؤنث غلب التذكير . وأكثر خطاب الله تعالى فى القرآن بلفظ التذكير ، والنساء يدخلن فى جملته . وقد يأتى ذكرهن بلفظ مفرد تبيينا وإيضاحا . وهذا لا يمنع دخولهن فى اللفظ العام الصالح لهن ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى ٥ ١٢٤ ـ النساء ﴾

٤

الناسخ والمنسوخ

تنزل التشريعات السماوية من الله تعالى على رسله لإصلاح الناس فى العقيدة والعبادة والمعاملة . وحيث كانت العقيدة واحدة لا يطرأ عليها تغيير لقيامها على توحيد الألوهية والربوبية فقد اتفقت دعوة الرسل جميعا إليها ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ۝ ٢٥ ـ الأنبياء ﴾ ـ أما العبادات والمعاملات فإنها تتفق فى الأسس العامة التى تهدف إلى تهذيب النفس والمحافظة على سلامة المجتمع وربطه برباط التعاون والإخاء ، إلا أن مطالب كل أمة قد تختلف عن مطالب أختها ، وما يلائم قوما فى عصر قد لا يلائمهم فى آخر ، ومسلك الدعوة فى طور النشأة والتأسيس يختلف عن شرعتها بعد التكوين والبناء ، فحكمة التشريع فى هذه غيرها فى تلك ، ولا شك أن المشرع سبحانه وتعالى يسع كل شىء رحمة وعلما ، ولله الأمر والنهى ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ۝ ٢٣ ـ الأنبياء ﴾ فلا غرابة فى أن يرفع تشريع بآخر مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر

تعريف النسخ وشروطه

والنسخ لغة : يطلق بمعنى الإزالة ، ومنه يقال : نسخت الشمس الظل : أى أزالته . ونسخت الريح أثر المشى ـ ويطلق بمعنى نقل الشىء من موضع إلى موضع ، ومنه نسخت الكتاب : إذا نقلت ما فيه . وفى القرآن ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ۝ ٢٩ ـ الجاثية ﴾ والمراد به نقل الأعمال إلى الصحف

والنسخ فى الاصطلاح : رفع الحكم الشرعى بخطاب شرعى ـ فخرج بالحكم رفع البراءة الأصلية ، وخرج بقولنا : بخطاب شرعى : رفع الحكم بموت أو جنون أو إجماع أو قياس

ويطلق الناسخ على الله تعالى كقوله ﴿ ما ننسخ من آية ٭ ١٠٦ ـ البقرة ﴾ وعلى الآية وما يعرف به النسخ ، فيقال : هذه الآية ناسخة لآية كذا ، وعلى الحكم الناسخ لحكم آخر

والمنسوخ : هو الحكم المرتفع ، فآية المواريث مثلا أو ما فيها من حكم ناسخ لحكم الوصية للوالدين والأقربين كما سيأتى ، ومقتضى ما سبق أنه يشترط فى النسخ :

١ ــ أن يكون الحكم المنسوخ شرعيا

٢ ــ أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطابا شرعيا متراخيا عن الخطاب المنسوخ حكمه

٣ ــ وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدا بوقت معين . وإلا فالحكم ينتهى بانتهاء وقته ولا يعد هذا نسخا

ما يقع فيه النسخ

ومن هنا يعلم أن النسخ لا يكون إلا فى الأوامر والنواهى ـ سواء كانت صريحة فى الطلب أو كانت بلفظ الخبر الذى بمعنى الأمر أو النهى على أن يكون ذلك غير متعلق بالاعتقادات التى ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، أو الآداب الخلقية ، أو أصول العبادات والمعاملات لأن الشرائع كلها لا تخلو عن هذه الأصول ، وهى متفقة فيها ، قال تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ٭ ١٣ ـ الشورى ﴾ وقال ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ٭ ١٨٣ ـ البقرة ﴾ وقال ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ٭ ٢٧ ـ الحج ﴾ وقال فى القصاص ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ٭ ٤٥ ـ المائدة ﴾ وقال فى الجهاد ﴿ وكأى من نبي قاتل معه ربيون كثير ٭ ١٤٣ ـ آل عمران ﴾ وفى الأخلاق ﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ٭ ١٨ ـ لقمان ﴾

كما لا يدخل النسخ الخبر الصريح الذى ليس بمعنى الطلب كالوعد والوعيد

ما به يعرف النسخ وأهميته

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عند أهل العلم من الفقهاء والاصوليين والمفسرين حتى لا تختلط الأحكام ، ولذلك وردت آثار كثيرة فى الحث على معرفته ، فقد روى أن عليا رضى الله عنه مر على قاض فقال له : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، فقال : هلكت وأهلكت ، وعن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا « ٢٦٩ - البقرة» ﴾ قال : ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره ، وحرامه وحلاله

ولمعرفة الناسخ والمنسوخ طرق :

١ — النقل الصريح عن النبى ﷺ أو عن صحابى كحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها » رواه الحاكم . وقول أنس فى قصة أصحاب بئر معونة كما سيأتى : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع

٢ — إجماع الأمة على أن هذا ناسخ وهذا منسوخ

٣ — معرفة المتقدم من المتأخر فى التاريخ

ولا يعتمد فى النسخ على الاجتهاد ، أو قول المفسرين ، أو التعارض بين الأدلة ظاهرا ، أو تأخر إسلام أحد الراويين

الآراء فى النسخ وأدلة ثبوته

والناس فى النسخ على أربعة أقسام :

١ — اليهود : وهؤلاء ينكرونه لأنه يستلزم فى زعمهم البداء ، وهو الظهور بعد الخفاء . وهم يعنون بذلك : أن النسخ إما أن يكون لغير حكمة . وهذا عبث محال على الله ، وإما أن يكون لحكمة ظهرت ولم تكن ظاهرة من قبل ، وهذا يستلزم البداء وسبق الجهل ، وهو محال على الله تعالى

واستدلالهم هذا فاسد ، لأن كلا من حكمة الناسخ وحكمة المنسوخ معلوم لله تعالى

من قبل ، فلم يتجدد علمه بها . وهو سبحانه ينقل العباد من حكم إلى حكم لمصلحة معلومة له من قبل بمقتضى حكمته وتصرفه المطلق فى ملكه

واليهود أنفسهم يعترفون بأن شريعة موسى ناسخة لما قبلها . وجاء فى نصوص التوراة النسخ ، كتحريم كثير من الحيوان على بنى إسرائيل بعد حله ، قال تعالى فى إخباره عنهم ﴿ كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ٭ ٩٣ ـ آل عمران ﴾ وقال ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ٭ ١٤٦ ـ الأنعام ﴾ الآية

٢ — الروافض : وهؤلاء غلوا فى إثبات النسخ وتوسعوا فيه ، وأجازوا البداء على الله تعالى ، فهم مع اليهود على طرفى نقيض ، واستدلوا على ذلك بأقوال نسبوها إلى على رضى الله عنه زوراً وبهتانا ، وبقوله تعالى ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ٭ ٣٩ ـ الرعد ﴾ على معنى أنه يظهر له المحو والإثبات

وذلك إغراق فى الضلال . وتحريف للقرآن . فإن معنى الآية : ينسخ الله ما يستصوب نسخه ويثبت بدله ما يرى المصلحة فى إثباته ، وكلٌ من المحو والإثبات موجود فى كثير من الحالات ، كمحو السيئات بالحسنات ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ٭ ١١٤ ـ هود ﴾ ومحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة وإثبات إيمانهم وطاعتهم . ولا يلزم من ذلك الظهور بعد الخفاء ، بل يفعل الله هذا مع علمه به قبل كونه

٣ — أبو مسلم الأصفهانى : وهو يجوز النسخ عقلا ويمنع وقوعه شرعا ، وقيل يمنعه فى القرآن خاصة محتجا بقوله تعالى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ٭ ٤٢ ـ فصلت ﴾ على معنى أن أحكامه لا تبطل أبدا . ويحمل آيات النسخ على التخصيص

ورد عليه بأن معنى الآية أن القرآن لم يتقدمه ما يبطله من الكتب ولا يأتى بعده ما يبطله

٤ — وجمهور العلماء : على جواز النسخ عقلا ووقوعه شرعا لأدلة :

١ — لأن أفعال الله لا تعلل بالأغراض ، فله أن يأمر بالشئ فى وقت وينسخه بالنهى عنه فى وقت ، وهو أعلم بمصالح العباد

٢ — ولأن نصوص الكتاب والسنة دالة على جواز النسخ ووقوعه :

ا — قال تعالى : ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ۝ ١٠١ ـ النحل ﴾ وقال ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ۝ ١٠٦ ـ البقرة ﴾

ب — وفى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال عمر رضى الله عنه : أقرؤنا أبىّ ، وأقضانا على ، وإنا لندع من قول أبى ، وذاك أن أبيا يقول : لا أدع شيئا سمعته من رسول الله ﷺ ، وقد قال الله عز وجل ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾

أقسام النسخ

والنسخ أربعة أقسام :

القسم الأول : نسخ القرآن بالقرآن : وهذا القسم متفق على جوازه ووقوعه من القائلين بالنسخ ، فآية الاعتداد بالحول مثلا نسخت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرا ، كما سيأتى فى الأمثلة

القسم الثانى : نسخ القرآن بالسنة : وتحت هذا نوعان :

ا — نسخ القرآن بالسنة الآحادية . والجمهور على عدم جوازه . لأن القرآن متواتر يفيد اليقين ، والآحادى مظنون ، ولا يصح رفع المعلوم بالمظنون

ب — ونسخ القرآن بالسنة المتواترة . وقد أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد فى رواية ، لأن الكل وحى . قال تعالى ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ۝ ٣ ، ٤ ـ النجم ﴾ وقال ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ۝ ٤٤ ـ النحل ﴾ والنسخ نوع من البيان ـ ومنعه الشافعى وأهل الظاهر وأحمد فى الرواية الأخرى ، لقوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ۝ ١٠٦ ـ البقرة ﴾ والسنة ليست خيرا من القرآن ولا مثله

القسم الثالث : نسخ السنة بالقرآن ، ويجيزه الجمهور ، فالتوجه إلى بيت المقدس كان ثابتا بالسنة ، وليس فى القرآن ما يدل عليه ، وقد نسخ بالقرآن فى قوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ١٤٤ - البقرة) ووجوب صوم يوم عاشوراء ، كان ثابتا بالسنة ونسخ بقوله ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ١٨٥ - البقرة) - ومنع هذا القسم الشافعى فى إحدى روايتيه ، وقال : وحيث وقع بالسنة فعها قرآن ، أو بالقرآن فعه سنة عاضدة تبين توافق الكتاب والسنة

القسم الرابع : نسخ السنة بالسنة : وتحت هذا أربعة أنواع : ١ - نسخ متواترة بمتواترة ٢ - ونسخ آحاد بآحاد ٣ - ونسخ آحاد بمتواترة ٤ - ونسخ متواترة بآحاد - والثلاثة الأولى جائزة - أما النوع الرابع ففيه الخلاف الوارد فى نسخ القرآن بالسنة الآحادية ، والجمهور على عدم جوازه

أما نسخ كلٍّ من الإجماع والقياس والنسخ بهما فالصحيح عدم جوازه

أنواع النسخ فى القرآن

والنسخ فى القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول : نسخ التلاوة والحكم معا ، ومثاله : ما رواه البخارى ومسلم عن عائشة قالت : « كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخن بخمس معلومات » فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن » وقولها « وهن مما يقرأ فى القرآن » ظاهره بقاء التلاوة ، وليس كذلك ، فإنه غير موجود فى المصحف العثمانى

النوع الثانى : نسخ الحكم وبقاء التلاوة : ومثاله : نسخ حكم آية العدة بالحول مع بقاء تلاوتها - وهذا النوع هو الذى ألفت فيه الكتب وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة

النوع الثالث : نسخ التلاوة مع بقاء الحكم : وقد ذكروا له أمثلة كثيرة ، منها آية الرجم « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم » ومنها ما روى فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا وقنت

الرسول يدعو على قاتليهم ، قال أنس : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع « أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نسخت تلاوته - وبعض أهل العلم ينكر هذا النوع من النسخ

حكمة النسخ

١ - مراعاة مصالح العباد

٢ - تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس

٣ - ابتلاء المكلف واختباره بالامتثال وعدمه

٤ - إرادة الخير للأمة والتيسير عليها ، لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب ، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر

النسخ إلى بدل وإلى غير بدل

والنسخ يكون إلى بدل وإلى غير بدل - والنسخ إلى بدل : إما إلى بدل أخف ، وإما إلى بدل مماثل ، وإما إلى بدل أثقل

١ - فالنسخ إلى غير بدل : كنسخ الصدقة بين يدى نجوى رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ٭ ١٢ - المجادلة ﴾ نسخت بقوله ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ٭ ١٣ - المجادلة ﴾

٢ - والنسخ إلى بدل أخف : يمثلون له بقوله تعالى ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ٭ ١٨٧ - البقرة ﴾ الآية - فهى ناسخة لقوله ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ٭ ١٨٣ - البقرة ﴾ لأن مقتضاها الموافقة لما كان عليه السابقون من تحريم الأكل والشرب والوطء إذا صلوا العتمة أو ناموا إلى الليلة التالية ، كما ذكروا ذلك ، فقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال : أنزلت ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة أو نام حرم عليه الطعام

والشراب والنساء إلى مثلها ، وروى مثله أحمد والحاكم وغيرهما ، وفيه ، فأنزل الله عز وجل ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ الآية ».

٣ — النسخ إلى بدل مماثل : كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة فى قوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ١٤٤ ـ البقرة ﴾

٤ — والنسخ إلى بدل أثقل : كنسخ الحبس فى البيوت فى قوله ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت ١٥ ـ النساء ﴾ الآية ، بالجلد فى قوله ﴿ الزانية والزانى ٢ ـ النور ﴾ الآية .

أو الرجم فى قوله « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ... »

شبه النسخ

وللناسخ والمنسوخ أمثلة كثيرة ، إلا أن العلماء فى هذا :

ا — منهم المكثر الذى اشتبه عليه الأمر فأدخل فى النسخ ما ليس منه ،

ب — ومنهم المتحرى الذى يعتمد على النقل الصحيح فى النسخ .

ومنشأ الاشتباه عند المكثرين أمور أهمها :

١ — اعتبار التخصيص نسخا (انظر مبحث العام والخاص)

٢ — اعتبار البيان نسخا (انظر مبحث المطلق والمقيد الآتى)

٣ — اعتبار ما شرع لسبب ثم زال السبب من المنسوخ ، كالحث على الصبر وتحمل أذى الكفار فى مبدأ الدعوة حين الضعف والقلة ، قالوا إنه منسوخ بآيات القتال ، والحقيقة أن الحكم الأول ـ وهو وجوب الصبر والتحمل ـ كان ويكون لحالة الضعف والقلة . وإذا وجدت الكثرة والقوة وجب الدفاع عن العقيدة بالقتال ، وهو الحكم الثانى

٤ — اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نسخا : كتحديد عدد الزوجات بأربع ، ومشروعية القصاص والدية ، وقد كان عند

بنى اسرائيل القصاص فقط كما قال ابن عباس فيما رواه البخارى ، ومثل هذا ليس نسخا ، وإنما هو رفع للبراءة الأصلية

أمثلة للنسخ

وقد ذكر السيوطى فى الإتقان إحدى وعشرين آية اعتبرها من قبيل النسخ نذكر منها ما يأتى ونعلق عليه :

١ — قوله تعالى ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ‏• ١١٥ - البقرة﴾ منسوخة بقوله ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام ‏• ١٤٤ - البقره﴾ . وقد قيل - وهو الحق - إن الأولى غير منسوخة لأنها فى صلاة التطوع فى السفر على الراحلة وكذا فى حال الخوف والاضطرار ، وحكمها باق ، كما فى الصحيحين . والثانية فى الصلوات الخمس ، والصحيح أنها ناسخة لما ثبت فى السنة من استقبال بيت المقدس

٢ — قوله تعالى ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين ‏• ١٨٠ - البقرة ﴾ قيل منسوخه بآية المواريث ، وقيل بحديث « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث » رواه أبو داود والترمذى . وقال : حسن صحيح

٣ — قوله ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية ‏• ١٨٤ - البقرة ﴾ نسخت بقوله ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ‏• ١٨٥ - البقرة﴾ لما فى الصحيحين من حديث سلمة بن الأكوع أنه قال : لما نزلت ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدى ، حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها »

وذهب ابن عباس إلى أنها محكمة غير منسوخة : روى البخارى عن عطاء أنه سمع ابن عباس رضى الله عنهما يقرأ : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ قال ابن عباس : ليست بمنسوخة . هى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا » - وليس معنى ﴿يطيقونه﴾ على هذا يستطيعونه ، وإنما معناه يتحملونه بمشقة وكلفة

وبعضهم جعل الكلام على تقدير لا النافية ، أى وعلى الذين لا يطيقونه

٤ - قوله ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ‏• ٢١٧ -

البقرة ﴾ نسخت بقوله ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة « ٣٦ ـ التوبة ﴾
وقيل بحمل عموم الأمر بالقتال على غير الأشهر الحرم فلا نسخ

٥ — قوله ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج « ٢٤٠ ـ البقرة ﴾ نسخت بقوله ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا « ٢٣٤ ـ البقرة ﴾
وقيل إن الآية الأولى محكمة لأنها فى مقام الوصية للزوجة إذا لم تخرج ولم تتزوج ، أما الثانية فهى لبيان العدة ، ولا تنافى بينهما

٦ — قوله ﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله « ٢٨٤ ـ البقرة﴾ نسخت بقوله ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها « ٢٨٦ ـ البقرة ﴾

٧ — قوله ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه « ٨ ـ النساء ﴾ نسخت بآية المواريث وقيل ـ وهو الصواب ـ إنها غير منسوخة ، وحكمها باق على الندب

٨ — قوله ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما « ١٥ ، ١٦ ـ النساء ﴾ نسختا بآية الجلد للبكر فى سورة النور ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة « ٢ ـ النور ﴾ وبالجلد للبكر وبالرجم للثيب الوارد فى السنة « . . البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » من حديث عبادة بن الصامت الذى رواه مسلم

٩ — قوله ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين « ٦٥ ـ الأنفال ﴾ نسخت بقوله ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين « ٦٦ ـ الأنفال ﴾

١٠ — قوله ﴿ انفروا خفافا وثقالا « ٤١ ـ التوبة ﴾ نسخت بقوله ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى « ٩١ ـ التوبة ﴾ الآية ، وبقوله ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة « ١٢٢ ـ التوبة ﴾ الآية
وقيل إنه من باب التخصيص لا النسخ . وقد مر ذكر أمثلة أخرى

٥

المطلق والمقيد

بعض الأحكام التشريعية يرد تارة مطلقا فى فرد شائع لا يتقيد بصفة أو شرط ، ويرد تارة أخرى متناولا له مع أمر زائد على حقيقته الشاملة لجنسه من صفة أو شرط ، وإطلاق اللفظ مرة وتقييده أخرى من البيان العربى ، وهو ما يعرف فى كتاب الله المعجز « بمطلق القرآن ومقيده »

تعريف المطلق والمقيد

والمطلق : هو ما دل على الحقيقة بلا قيد ، فهو يتناول واحدا لا بعينه من الحقيقة وأكثر مواضعه النكرة فى الإثبات كلفظ ﴿ رقبة ﴾ فى مثل ﴿ فتحرير رقبة ﴾ فإنه يتناول عتق إنسان مملوك ـ وهو شائع فى جنس العبيد مؤمنهم وكافرهم على السواء ـ وهو نكرة فى الإثبات ، لأن المعنى : فعليه تحرير رقبة ، وكقوله عليه الصلاة والسلام « لا نكاح إلا بولى » رواه أحمد والأربعة . وهو مطلق فى جنس الأولياء سواء كان رشيدا أو غير رشيد

والمقيد : هو ما دل على الحقيقة بقيد ، كالرقبة المقيدة بالإيمان فى قوله ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾

أقسام المطلق والمقيد وحكم كل منها

وللمطلق والمقيد صور عقلية نذكر منها الأقسام الواقعية فيمايلى :

١ — أن يتحد السبب والحكم : كالصيام فى كفارة اليمين : جاء مطلقا فى القراءة المتواترة بالمصحف ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم . ٨٩ ـ المائدة ﴾ ومقيدا بالتتابع فى قراءة ابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات »

ـ فمثل هذا يحمل المطلق فيه على المقيد لأن السبب الواحد لا يوجب المتنافيين ـ ولهذا قال قوم بالتتابع ، وخالفهم من يرى أن القراءة غير المتواترة ـ وإن كانت مشهورة ـ ليست حجة ، فليس هنا مقيد حتى يحمل عليه المطلق

٢ — أن يتحد السبب ويختلف الحكم : كالأيدى فى الوضوء والتيمم . قيد غسل الأيدى فى الوضوء بأنه إلى المرافق ، قال تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق • ٦ ـ المائدة ﴾ ، وأطلق المسح فى التيمم قال تعالى ﴿ فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه • ٦ ـ المائدة ﴾ ـ فقيل لا يحمل المطلق على المقيد لاختلاف الحكم . ونقل الغزالى عن أكثر الشافعية حمل المطلق على المقيد هنا لاتحاد السبب وإن اختلف الحكم

٣ — أن يختلف السبب ويتحد الحكم ، وفى هذا صورتان :

ا — الأولى : أن يكون التقييد واحدا ، كعتق الرقبة فى الكفارة ، ورد اشتراط الإيمان فى الرقبة بتقييدها بالرقبة المؤمنة فى كفارة القتل الخطأ ، قال تعالى ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة • ٩٢ ـ النساء ﴾ وأطلقت فى كفارة الظهار ، قال تعالى ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا • ٣ ـ المجادلة ﴾ وفى كفارة اليمين ، قال تعالى ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة • ٨٩ ـ المائدة ﴾ فقال جماعة منهم المالكية وكثير من الشافعية يحمل المطلق على المقيد ، فلا تجزئ الرقبة الكافرة فى كفارة الظهار واليمين ، وقال آخرون ـ وهو مذهب الأحناف ـ لا يحمل المطلق على المقيد ، فيجوز إعتاق الكافرة فى كفارة الظهار واليمين

ب — الثانية : أن يكون التقييد مختلفا ، كالكفارة بالصوم ، قيد الصوم بالتتابع فى كفارة القتل ، قال تعالى ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله • ٩٢ ـ المائدة ﴾ وفى كفارة الظهار ، قال تعالى ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن

يتماسا ٣ - المجادلة ﴾ وجاء تقييده بالتفريق فى صوم المتمتع فى الحج . قال تعالى ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم ١٩٦ - البقرة ﴾ ثم جاء الصوم مطلقا دون تقييد بالتتابع أو التفريق فى كفارة اليمين قال تعالى ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ٨٩ - المائدة ﴾ . وفى قضاء رمضان قال تعالى ﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ١٨٤ - البقرة ﴾ - فالمطلق فى هذا لايحمل على المقيد . لأن المقيد مختلف . فحمل المطلق على أحدهما ترجيح بلا مرجح

٤ — أن يختلف السبب ويختلف الحكم :- كاليد فى الوضوء والسرقة . قيدت فى الوضوء إلى المرافق ، وأطلقت فى السرقة . قال تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ٥ ٣٨ - المائدة ﴾ فلا يحمل المطلق على المقيد للاختلاف سببا وحكما ، وليس فى هذا شىء من التعارض

٦
المنطوق والمفهوم

دلالة الألفاظ على المعانى قد يكون مأخذها من منطوق الكلام الملفوظ به نصا أو احتمالا بتقدير أو غير تقدير ، وقد يكون مأخذها من مفهوم الكلام سواء وافق حكمها حكم المنطوق أو خالفه ـ وهذا هو ما يسمى : بالمنطوق والمفهوم .

تعريف المنطوق وأقسامه

المنطوق : هو ما دل عليه اللفظ فى محل النطق ـ أى أن دلالته تكون من مادة الحروف التى ينطق بها

ومنه : النص ، والظاهر ، والمؤول :

فالنص : هو ما يفيد بنفسه معنى صريحا لا يحتمل غيره . كقوله تعالى ﴿ فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ٥ ١٩٦ ـ البقرة ﴾ فإن وصف عشرة بكاملة قطع احتمال العشرة لما دونها مجازا . وهذا هو الغرض من النص

والظاهر : هو ما يسبق إلى الفهم منه عند الإطلاق معنى مع احتمال غيره احتمالا مرجوحا ـ فهو يشترك مع النص فى أن دلالته فى محل النطق ، ويختلف عنه فى أن النص يفيد معنى لا يحتمل غيره ، والظاهر يفيد معنى عند الإطلاق مع احتمال غيره احتمالا مرجوحا . كقوله تعالى ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ٥ ١٧٣ ـ البقرة ﴾ فإن الباغى يطلق على الجاهل . ويطلق على الظالم ، ولكن إطلاقه على الظالم أظهر وأغلب فهو إطلاق راجح ، والأول مرجوح ، وكقوله ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ٥ ٢٢٢ ـ البقرة ﴾ فانقطاع الحيض يقال فيه طهر ، والوضوء والغسل يقال فيهما طهر ، ودلالة الطهر على الثانى أظهر ، فهى دلالة راجحة ، والأولى مرجوحة

والمؤول : هو ما حمل لفظه على المعنى المرجوح لدليل يمنع من إرادة المعنى الراجح فهو يخالف الظاهر فى أن الظاهر يحمل على المعنى الراجح حيث لا دليل يصرفه إلى المعنى المرجوح ، أما المؤول فإنه يحمل على المعنى المرجوح لوجود الدليل الصارف عن إرادة المعنى الراجح . وإن كان كل منهما يدل عليه اللفظ فى محل النطق ، كقوله تعالى ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة * ٢٤ ـ الإسراء ﴾ فإنه محمول على الخضوع والتواضع وحسن معاملة الوالدين

دلالة الاقتضاء ودلالة الإشارة

قد تتوقف صحة دلالة اللفظ على إضمار ، وتسمى بدلالة الاقتضاء ، وقد لا تتوقف على إضمار ويدل اللفظ على ما لم يقصد به قصداً أوليا ، وتسمى دلالة الإشارة :

فالأول : كقوله تعالى ﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر * ١٨٤ ـ البقرة ﴾ أى فأفطر فعدة . لأن قضاء الصوم على المسافر إنما يجب إذا أفطر فى سفره ، أما إذا صام فى سفره فلا موجب للقضاء خلافا للظاهرية ، وكقوله تعالى ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم * ٢٣ ـ النساء ﴾ فإنه يتضمن إضمار الوطء ويقتضيه ، أى وطء أمهاتكم ، لأن التحريم لا يضاف إلى الأعيان ، فوجب لذلك إضمار فعل يتعلق به التحريم وهو الوطء ، وهذا النوع يقرب من حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وهو من باب إيجاز القصر فى البلاغة ـ وسمى اقتضاء لاقتضاء الكلام شيئاً زائدا على اللفظ

والثانى ـ وهو دلالة الإشارة ـ كقوله تعالى ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر * ١٨٧ ـ البقرة ﴾ فإنه يدل على صحة صوم من أصبح جنبا ـ لانه يبيح الوطء إلى طلوع الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل ، وهذا يستلزم الإصباح على جنابة ، وإباحة سبب الشيء إباحة للشيء نفسه ،

فإباحة الجماع إلى آخر جزء من الليل لا يتسع معه الغسل قبل الفجر إباحة للإصباح على جنابة

وهاتان الدلالتان ـ الاقتضاء والإشارة ـ أخذا من المنطوق أيضا ، فهما من أقسام المنطوق ، فالمنطوق على هـذا يشمل ١ ـ النص ، ٢ ـ والظاهر ٣ ـ والمؤول ٤ ـ والاقتضاء ٥ ـ والإشارة

تعريف المفهوم وأقسامه

المفهوم : ـ هو ما دل عليه اللفظ لا فى محل النطق ـ وهو قسمان ١ ـ مفهوم موافقة ٢ ـ مفهوم مخالفة

١ ـ فمفهوم الموافقة : هو ما يوافق حكمه المنطوق ـ وهو نوعان :

ا ـ النوع الأول : فحوى الخطاب : ـ وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق ، كفهم تحريم الشتم والضرب من قوله تعالى ﴿ فلا تقل لهما أف * ٢٣ ـ الإسراء ﴾ لأن منطوق الآية تحريم التأفيف ، فيكون تحريم الشتم والضرب أولى لأنهما أشد

ب ـ النوع الثانى : لحن الخطاب : وهو ما ثبت الحكم فيه للمفهوم كثبوته للمنطوق على السواء ـ كدلالة قوله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا * ١٠ ـ النساء ﴾ على تحريم إحراق أموال اليتامى أو إضاعتها بأى نوع من أنواع التلف لأن هذا مساو للأكل فى الإتلاف

وتسمية هذين بمفهوم الموافقة لأن السكوت عنه يوافق المنطوق به فى الحكم وإن زاد عليه فى النوع الأول ، وساواه فى الثانى

٢ ـ مفهوم المخالفة : ـ هو ما يخالف حكمه المنطوق ـ وهو أنواع : ـ

ا ـ مفهوم صفة : والمراد بها الصفة المعنوية ، كالمشتق فى قوله تعالى ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا * ٦ ـ الحجرات ﴾ فمفهوم التعبير بفاسق أن غير الفاسق لا يجب التثبت فى خبره ، ومعنى هذا أنه يجب قبول خبر الواحد العدل . وكالحال : ـ فى قوله ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل

من النعم « ٩٥ - المائدة ﴾ فهو يدل على انتفاء الحكم فى المخطىء ، لأن تخصيص العمد بوجوب الجزاء به يدل على نفى وجوب الجزاء فى قتل الصيد خطأ . وكالعدد : - فى قوله ﴿ الحج أشهر معلومات « ١٩٧ - البقرة ﴾ مفهومه أن الإحرام بالحج فى غير أشهره لا يصح ، وقوله ﴿ فاجلدوهم ثمانين جلدة « ٤ - النور ﴾ مفهومه ألا يجلد أقل أو أكثر

ب : مفهوم شرط : - كقوله تعالى ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن « ٦ - الطلاق) فمعناه أن غير الحوامل لا يجب الإنفاق عليهن

حـ : مفهوم غاية : - كقوله تعالى ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره « ٢٣٠ - البقرة ﴾ فمفهوم هذا أنها تحل للأول إذا نكحت غيره بشروط النكاح ، والحصر فى قوله ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين « ٥ الفاتحة ﴾ مفهومه أن غيره سبحانه لايعبد ولا يستعان به ، ولذلك كانت دالة على إفراده تعالى بالعبادة والاستعانة

الاختلاف فى الاحتجاج به

اختلف فى الاحتجاج بهذه المفاهيم ، والأصح فى ذلك أنها حجة بشروط ، منها : -

ا - ألا يكون المذكور خرج مخرج الغالب - فلا مفهوم للحجور فى قوله تعالى ﴿ وربائبكم اللاتى فى حجوركم « ٢٣ - النساء ﴾ لأن الغالب كون الربائب فى حجور الأزواج

ب - ومنها ألا يكون المذكور لبيان الواقع - فلا مفهوم لقوله ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به « ١١٧ المؤمنون﴾ لأن الواقع أن أى إله آخر لا برهان عليه ، وقوله ﴿ لا برهان له به ﴾ صفة لازمة جىء بها للتوكيد والتهكم بمدّعى إله مع الله لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان - ومثله قوله ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا « ٣٣ - النور﴾ فلا مفهوم له يدل على إباحة إكراه السيد لأمته على البغاء إن لم ترد التحصن ، وانما قال ﴿ إن أردن تحصنا ﴾ لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن

٧

اعجاز القران

هذا الكون الفسيح الذى يعج بمخلوقات الله تضاءلت جباله الشامخة ، وبحاره الزاخرة ، ومهاده الواسعة ، أمام مخلوق ضعيف هو الإنسان ، ذلك لما جمع الله فيه من خصائص ، وما منحه من قوة التفكير التى تشع فى الأرجاء لتسخر عناصر القوى الكونية ، وتجعلها فى خدمة الإنسانية . وما كان الله ليذر هذا الإنسان دون أن يمده بقبس من الوحى بين فترة وأخرى تقوده إلى معالم الهدى ليسلك دروب الحياة المختلفة على بينة وبصيرة ، إلا أن غلواءه الفطرى يأبى عليه الخضوع لقرينه من بنى الإنسان ما لم يأت له بما لا يستطيع حتى يعترف ويخضع ويؤمن بقدرة عليا فوق قدرته ، فكان رسل الله الذين يتنزل عليهم الوحى ويؤيدهم الله بخوارق العادات التى تقيم الحجة على الناس فيعترفون أمامها بالعجز ، ويدينون لها بالولاء والطاعة ، ولكن العقل البشرى كان فى أطوار نموه الأولى لا يرى شيئاً يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الكونية الحسية حيث لا يرقى عقله إلى السمو فى المعرفة والتفكير ، فناسب هذا أن يبعث كل رسول إلى قومه خاصة ، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قوى السماء ، فلما اكتمل العقل البشرى أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة إلى الناس كافة ، وكانت معجزتها معجزة العقل البشرى فى أرقى تطورات نضجه ونموه ، فبينما كان تأييد الله لرسله السابقين بآيات كونية تبهر الأبصار ولا سبيل للعقل فى معارضتها . كمعجزة اليد والعصا لموسى ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى ، كانت معجزة محمد ﷺ فى عصر مشرف على العلم معجزة عقلية تحاج العقل البشرى وتتحداه إلى الأبد ، وهى معجزة القرآن بعلومه ومعارفه ، وأخباره الماضية والمستقبلة ، فالعقل الإنسانى على تقدمه لا يعجز عن معارضته لأنه آية كونية لا قبل له بها . ولكن عجزه لقصوره الذاتى ، فيكون

هذا اعترافا منه بأنه وحى الله إلى رسوله ، وأن حاجته إلى الاهتداء به ماسة ليستقيم عوجه ، وترقى مواهبه . وهذا المعنى ، هو ما يشير إليه رسول الله ﷺ فى قوله « ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » رواه البخارى

وهكذا كتب الله لمعجزة الإسلام الخلود ، فضعفت القدرة الإنسانية مع تراخى الزمن وتقدم العلم عن معارضتها

والحديث عن إعجاز القرآن ضرب من الإعجاز لا يصل الباحث فيه إلى سر جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى يكشف عن سر إعجازها الزمن . فهو كما يقول الرافعى « ما أشبه القرآن الكريم فى تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوره من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقا جديدا ، ومراما بعيداً »

تعريف الإعجاز وإثباته

الإعجاز : إثبات العجز ، والعجز فى التعارف : اسم للقصور عن فعل الشىء . وهو ضد القدرة . وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز ، والمراد بالإعجاز هنا : إظهار صدق النبى ﷺ فى دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته فى معجزته الخالدة ـ وهى القرآن ـ وعجز الأجيال بعدهم . والمعجزة : ـ أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة

والقرآن الكريم تحدى به النبى ﷺ العرب ، وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم فى الفصاحة والبلاغة ، ومثل هذا لا يكون إلا معجزا

فقد ثبت أن الرسول ﷺ تحدى العرب بالقرآن على مراحل ثلاث : ـ

ا ـ تحداهم بالقرآن كله فى أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحديا يظهر على طاقتهم مجتمعين ، بقوله تعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن

يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا « ٨٨ - الإسراء ﴾

ب - ثم تحداهم بعشر سور منه فى قوله تعالى ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله « ١٣ ، ١٤ - هود ﴾

حـ - ثم تحداهم بسورة واحدة منه فى قوله ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله « ٣٨ - يونس ﴾ وكرر هذا التحدى فى قوله ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله « ٢٣ - البقرة ﴾

ومن عنده إلمام قليل بتاريخ العرب وأدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثة الرسول ﷺ التى رقت بلغة العرب وهذبت لسانها وجمعت خير ما فى لهجاتها من أسواق الأدب والمفاخرة بالشعر والنثر . حتى انتهى مصب جداول الفصاحة وإدارة الكلام بالبيان فى لغة قريش التى نزل بها القرآن ، وما كان عليه العرب من صلف يعلو بأحدهم على أبناء عمومته أنفا وكبراً مضرب مثل فى التاريخ الذى سجل لهم أياما نسبت إليهم لما أحدثوه فيها من معارك دامية وحروب طاحنة . أشعلها شرر من الكبرياء والأنفة

ومثل هؤلاء مع توفر دواعى اللسان وقوة البيان التى يوقدها حماس القبيل ويؤججها أتون الحمية لو تسنى لهم معارضة القرآن الكريم لأثر هذا عنهم ، وتطاير خبره فى الأجيال . فالقوم قد تصفحوا آيات الكتاب وقلبوها على وجوه ما نبغوا فيه من شعر ونثر فلم يجدوا مسلكا لمحاكاته ، أومنفذاً لمعارضته ، بل جرى على ألسنتهم الحق الذى أخرسهم عفو الخاطر عندما زلزلت آيات القرآن قلوبهم كما أثر ذلك عن الوليد بن المغيرة ، وعندما عجزت حيلتهم رموه بقول باهت فقالوا : سحر يؤثر ، أو شاعر مجنون ، أو أساطير الأولين . ولم يكن لهم بد أمام العجز والمكابرة إلا أن يعرضوا رقابهم للسيوف ، وكأن اليأس القاتل ينقل بنيه من نظرتهم للحياة الطويلة والعمر المديد إلى ساعة الاحتضار فيستسلمون للموت الزؤام - وبهذا ثبت إعجاز القرآن بلا مراء

وكان سماعه حجة ملزمة ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع

كلام الله « ٦ ـ التوبة ﴾ . وكان ما يحتويه من نواحى الإعجاز يفوق كل معجزة كونية سابقة ويغنى عنها جميعا ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم « ٥٠ ، ٥١ ـ العنكبوت ﴾

وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعى عجز للغة العربية فى ريعان شبابها وعنفوان قوتها

والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل ولا يزال فى موقف التحدى شامخ الأنف ، فأسرار الكون التى يكشف عنها العلم الحديث ما هو إلا مظاهر للحقائق العليا التى ينطوى عليها سر هذا الوجود فى خالقه ومدبره ، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه ـ فصار القرآن بهذا معجزا للإنسانية كافة

وجوه إعجاز القرآن

لقد كان لنشأة علم الكلام فى الإسلام أثر أصدق ما يقال فيه : إنه كلام فى كلام ، وما فيه من وميض التفكير يجر متتبعه إلى مجاهل من القول بعضها فوق بعض . وقد بدأت مأساة علماء الكلام فى القول بخلق القرآن ، ثم اختلفت آراؤهم وتضاربت فى وجوه إعجازه :ـ

ا ـ فذهب أبو اسحاق ابراهيم النظام ومن تابعه كالمرتضى من الشيعة إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة ، ومعنى الصرفة فى نظر النظام : أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها ، فكان هذا الصرف خارقا للعادة . ومعناها فى نظر المرتضى : أن الله سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن ـ وهو قول يزحف على بطنه ليبرهن على طفولته وعجز ذويه ، فلا يقال فيمن سلب القدرة على شىء إن الشىء أعجزه مادام فى مقدوره أن يأتى به فى وقت ما ، وإنما المعجز حينئذ هو قدر الله ، فلا يكون القرآن معجزاً ، وحديثنا عن إعجاز مضاف إلى القرآن سوف يظل ثابتا له فى كل عصر . لا عن إعجاز الله

ب ـ وذهب قوم إلى أن القرآن معجز ببلاغته التى وصلت إلى مرتبة لم يعهد لها

مثيل ـ وهذه النظرة نظرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعانى الحية فى النسج المحكم ، والبيان الرائع

حـ ـ وبعضهم يقول : إن وجه إعجازه فى تضمنه البديع الغريب المخالف لما عهد فى كلام العرب من الفواصل والمقاطع

ى ـ ويقول آخرون : بل إعجازه فى الإخبار عن المغيبات المستقلة التى لا يطلع عليها إلا بالوحى . أو الإخبار عن الأمور التى تقدمت منذ بدء الخلق بما لا يمكن صدوره من أمى لم يتصل بأهل الكتاب

هـ ـ وذهب جماعة إلى أن القرآن معجز لما تضمنه من العلوم المختلفة ، والحكم البليغة ، وهناك وجوه أخرى للاعجاز تدور فى هذا الفلك جمعها بعضهم فى عشرة أو أكثر

والحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى : ـ

فهو معجز فى ألفاظه وأسلوبه ، والحرف الواحد منه فى موضعه من الإعجاز الذى لا يغنى عنه غيره فى تماسك الكلمة ، والكلمة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الجملة ، والجملة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الآية

وهو معجز فى بيانه ونظمه ، يجد فيه القارىء صورة حية للحياة والكون والإنسان

وهو معجز فى معانيه التى كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها فى الوجود

وهو معجز بعلومه ومعارفه التى أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المعينة

وهو معجز فى تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالى تسعد الدنيا على يديه

والقرآن ـ أولا وآخراً ـ هو الذى صير العرب رعاة الشاء والغنم ساسة شعوب وقادة أمم ، وهذا وحده إعجاز

القدر المعجز من القرآن

ا ـ يذهب المعتزلة إلى أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه

ب ـ ويذهب البعض إلى أن المعجز منه القليل والكثير دون تقييد بالسورة لقوله تعالى ﴿ فليأتوا بحديث مثله ، ٣٤ ـ الطور ﴾

حـ ـ ويذهب آخرون إلى أن الإعجاز يتعلق بسورة تامة ولو قصيرة ، أوقدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات

ولقد وقع التحدى بالقرآن كله « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله » وبعشر سور « فأتوا بعشر سور مثله » وبسورة واحدة « فأتوا بسورة مثله » وبحديث مثله « فليأتوا بحديث مثله »

ونحن لا نرى الإعجاز فى قدر معين لأننا نجده فى أصوات حروفه ووقع كلماته ، كما نجده فى الآية والسورة ، فالقرآن كلام الله وكفى

٨
أمثال القرآن

الحقائق السامية فى معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت فى قالب حسن يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقينى ، والتمثيل هو القالب الذى يبرز المعانى فى صورة حسية تستقر فى الأذهان ، بتشبيه الغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس ، وقياس النظير على النظير . وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالا ، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له ، واقتناع العقل به . وهو من أساليب القرآن الكريم فى ضروب بيانه ونواحى إعجازه

تعريف المثل

والأمثال : جمع مثل ، والمثل والمثل والمثيل : كالشبه والشبه والشبيه لفظا ومعنى ، ويطلق المثل على الحال والقصة والصفة العجيبة الشأن ، كقوله تعالى ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون « ١٥ - القتال ﴾ أى قصتها وصفتها التى يتعجب منها

والمثل فى الأدب : قول محكى سائر يقصد منه تشبيه حال الذى حكى فيه بحال الذى قيل لأجله ، مثل « رب رمية من غير رام » أى رب مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطىء . وأول من قال ذلك الحكم بن يغوث المنقرى ، يضرب للمخطىء يصيب أحيانا ، وعلى هذا فلابد له من مورد يشبه مضربه به

وقد قيل فى ضابط المثل كذلك : إنه إبراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا . والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد ، وأمثال القرآن كذلك . فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل

فوائد الأمثال

ا ـ والأمثال تبرز المعقول فى صورة المحسوس فيتقبله العقل . لأن المعانى المعقولة لا تستقر فى الذهن إلا إذا صيغت فى صورة حسية قريبة الفهم

ب ـ وتكشف عن الحقائق ، وتعرض الغائب فى معرض الحاضر

حـ ـ وتجمع المعنى الرائع فى عبارة موجزة وتشبيه مقبول

ء ـ وهى أوقع فى النفس ، وأبلغ فى الوعظ ، وأقوى فى الزجر ، وأقوم فى الاقناع . وقد أكثر الله تعالى الأمثال فى القرآن الكريم للتذكر والعبرة ، قال تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾ ٢٧ ـ الزمر ﴾ وقال : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ٤٣ ، العنكبوت ﴾

وضربها النبي ﷺ فى حديثه . واستعان بها الداعون إلى الله فى كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة

أنواع الأمثال فى القرآن

الأمثال فى القرآن ثلاثة أنواع : ١ ـ الأمثال المصرحة ٢ ـ والأمثال الكامنة ٣ ـ والأمثال المرسلة

النوع الأول : ـ الأمثال المصرحة : ـ وهى ما صرح فيها بلفظ المثل ، أو ما يدل على التشبيه . وهى كثيرة فى القرآن نورد منها ما يأتى : ـ

ا ـ قوله تعالى فى حق المنافقين ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون ، صم بكم عمى فهم لايرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ـ إلى قوله ـ إن الله على كل شىء قدير ، ١٧ ـ ٢٠ ـ البقرة ﴾

فى هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين : مثلا ناريا فى قوله : ﴿ كمثل الذى استوقد ناراً . . . ﴾ لما فى النار من مادة النور ، ومثلا مائيا فى قوله : ﴿ أو كصيب من السماء . . . ﴾ لما فى الماء من مادة الحياة ، وقد نزل الوحى من السماء متضمنا

لاستنارة القلوب وحياتها . وذكر الله حظ المنافقين في الحالين . فهم بمنزلة من استوقد ناراً للإضاءة والنفع حيث انتفعوا ماديا بالدخول فى الإسلام ، ولكن لم يكن له أثر نورى فى قلوبهم ، فذهب الله بما فى النار من الإضاءة ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ وأبقى ما فيها من الإحراق ، وهذا مثلهم النارى

وذكر مثلهم المائى فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه ووضع إصبعيه فى أذنيه وغمض عينيه خوفا من صاعقة تصيبه ، لأن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق

ب ـ وذكر الله المثلين : المائى والنارى ـ فى سورة الرعد للحق والباطل . فقال تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ◦ ١٧ ـ الرعد ﴾

شبه الوحى الذى أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، والسيل إذا جرى فى الأودية احتمل زبدا وغثاء ، فكذلك الهدى والعلم إذا سرى فى القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها ، وهذا هو المثل المائى فى قوله ﴿ أنزل من السماء ماء . . . ﴾ ، وهكذا يضرب الله الحق والباطل

وذكر المثل النارى فى قوله ﴿ ومما يوقدون عليه فى النار . . . ﴾ فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها تخرج النار ما فيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذى ينتفع به فيذهب جفاء . فكذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث

النوع الثانى من الأمثال : الأمثال الكامنة ـ وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ، ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز ، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها ، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها : ـ

١ - ما فى معنى قولهم (خير الأمور الوسط)

ا - قوله تعالى فى البقرة ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ٥ ٦٨ - البقرة ﴾

ب - قوله تعالى فى النفقة ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ٥ ٦٧ - الفرقان ﴾

حـ - قوله تعالى فى الصلاة ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ٥ ١١٠ - الإسراء ﴾

ء - قوله تعالى فى الإنفاق ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ٢٩ - الإسراء ﴾

٢ - ما فى معنى قولهم (ليس الخبر كالمعاينة)

قوله تعالى فى إبراهيم عليه السلام ﴿ قال أولم تؤمن قال بلى ولـكن ليطمئن قلبى ٥ ٢٦٠ - البقرة ﴾

٣ - ما فى معنى قولهم (كما تدين تدان)

قوله تعالى ﴿ من يعمل سوءا يجز به ٥ ١٢٣ - النساء ﴾

٤ - ما فى معنى (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين)

قوله تعالى على لسان يعقوب ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ٥ ٦٤ - يوسف ﴾

النوع الثالث : الأمثال المرسلة فى القرآن : وهى جمل أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه . ويصح استعمالها فيما يشبه ما وردت فيه .
ومن أمثله ذلك ما يأتى :-

١ - ﴿ الآن حصحص الحق ٥ ٥١ - يوسف ﴾ ٢ - ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ٥ ٥٨ - النجم ﴾ ٣ - ﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ٥ ٤١ - يوسف ﴾ ٤ - ﴿ أليس الصبح بقريب ٥ ٨١ - هود ﴾ ٥ - ﴿ لكل نبأ مستقر ٥ ٦٧ - الأنعام ﴾ ٦ - ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ٥ ٤٣ - فاطر ﴾ ٧ - ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ٥ ٨٤ - الإسراء ﴾ ٨ - ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ٥ ٢١٢ - البقرة ﴾

٩ - ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ۞ ٣٨ - المدثر ﴾ ١٠ - ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ۞ ٦٠ - الرحمن ﴾ ١١ - ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ۞ ٥٣ - المؤمنون ﴾ ١٢ - ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ۞ ٧٣ - الحج ﴾ ١٣ - ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ۞ ٦١ - الصافات ﴾ ١٤ - ﴿ لا يستوى الخبيث والطيب ۞ ١٠٠ - المائدة ﴾ ١٥ - ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ۞ ٢٤٩ - البقرة ﴾ ١٦ - ﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ۞ ١٤ - الحشر ﴾

٩
أقسام القرآن[1]

يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد فى تقبله للحق وانقياده لنوره ، فالنفس الصافية التى لم تتدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى ، وتفتح قلبها لإشعاعه ، ويكفيها فى الانصياع إليه اللمحة والإشارة . أما النفس التى رانت عليها سحابة الجهل ، وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر ، وصيغ التأكيد ، حتى يتزعزع نكيرها . والقسم فى الخطاب من أساليب التأكيد التى يتخللها البرهان المفحم ، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد

تعريف القسم وصيغته

والأقسام : جمع قسم : بفتح السين ، بمعنى الحلف واليمين ، والصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل أقسم أو أحلف متعديا بالباء إلى المقسم به . ثم يأتى المقسم عليه ، وهو المسمى بجواب القسم ، كقوله تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت « ٣٨ ـ النحل ﴾ فأجزاء صيغة القسم ثلاثة : ١ ـ الفعل الذى يتعدى بالباء ٢ ـ والمقسم به ٣ ـ والمقسم عليه

ولما كان القسم يكثر فى الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ، ثم عوض عن الباء بالواو فى الأسماء الظاهرة كقوله تعالى ﴿ والليل إذا يغشى « ١ ـ الليل ﴾ وبالتاء فى لفظ الجلالة كقوله ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم « ٥٧ ـ الأنبياء ﴾ وهذا قليل ، أما الواو فكثيرة

---

(١) أفرد هذا الفصل بالبحث العلامة ابن القيم فى كتابه « أقسام القرآن » المسمى بالتبيان » وهو كتاب فريد فى بابه اختصرنا منه هذا البحث

فائدة القسم فى القرآن

تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض ، وللمخاطب حالات مختلفة ، هى المسماة فى المعانى بأضرب الخبر الثلاثة : الابتدائى ، والطلبى ، والإنكارى

فقد يكون المخاطب خالى الذهن من الحكم فيلقى إليه الكلام غفلا من التأكيد ، ويسمى هذا الضرب ابتدائياً

وقد يكون متردداً فى ثبوت الحكم وعدمه ، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده ، ويسمى هذا الضرب طلبياً

وقد يكون منكرا للحكم ، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفاً ، ويسمى هذا الضرب إنكاريا

والقسم من المؤكدات المشهورة التى تمكن الشىء فى النفس وتقويه ، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة ، ووقف الناس منه مواقف متباينة ، فمنهم الشاك ، ومنهم المنكر ، ومنهم الخصم الألد . فالقسم فى كلام الله يزيل الشكوك ، ويحبط الشبهات ، ويقيم الحجة ، ويؤكد الأخبار ، ويقرر الحكم فى أكمل صورة

المقسم به فى القرآن

يقسم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته ، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته ، وإقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته . وقد أقسم الله تعالى بنفسه فى القرآن فى سبعة مواضع :- ١ - فى قوله ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ٠ ٧ - التغابن ﴾ ٢ - وقوله ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ٠ ٣ - سبأ ﴾ ٣ - وقوله ﴿ ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق ٠ ٥٣ - يونس ﴾ - وفى هذه الثلاثة أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم به ٤ - وقوله ﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ٠ ٦٨ - مريم ﴾ ٥ - وقوله ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ٠ ٩٢ - الحجر ﴾ ٦ - وقوله ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر

بينهم • ٦٥ ـ النساء ﴾ ٧ ـ وقوله ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب • ٤٠ ـ المعارج ﴾

وسائر القسم فى القرآن بمخلوقاته سبحانه ، كقوله ﴿ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها • .. أول سورة الشمس ﴾ ، وقوله ﴿ والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى • ١ : ٣ ـ الليل ﴾ وقوله ﴿ والفجر وليال عشر • ١ ، ٢ ـ الفجر ﴾ وقوله ﴿ فلا أقسم بالخنس • ١٥ ـ التكوير ﴾ وقوله ﴿ والتين والزيتون وطور سينين • ١ ، ٢ التين ﴾ وهذا هو الكثير فى القرآن

ولله أن يحلف بما شاء ، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك ، فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » رواه الترمذى وحسنه ، وصححه الحاكم . وإنما أقسم الله بمخلوقاته لأنها تدل على بارئها ، وهو الله تعالى ، وللاشارة إلى فضيلتها ومنفعتها ليعتبر الناس بها

انواع القسم

القسم إما ظاهر ، وإما مضمر

١ ـ فالظاهر : ـ هو ما صرح فيه بفعل القسم ، وصرح فيه بالمقسم به ، ومنه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاء بالجار من الباء أو الواو أو التاء ، وقد أدخلت (لا) النافية على فعل القسم فى بعض المواضع . كقوله تعالى ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة • ١ ، ٢ ـ القيامة ﴾ فقيل : لا فى الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام ، والتقدير مثلا : لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب ، ثم استأنف فقال : أقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة ، إنكم ستبعثون ، وقيل : لا . لنفى القسم كأنه قال : لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس ، ولكنى أسألك غير مقسم ، أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت ؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم ـ وقيل : لا . زائدة ـ وجواب القسم فى الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد : أيحسب الإنسان . الخ ، والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن

٢ ـ والقسم المضمر : هو ما لم يصرح فيه بفعل القسم ولا بالمقسم به ، وإنما تدل

عليه اللام المؤكدة التى تدخل على جواب القسم كقوله تعالى ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ﴿ ١٨٩ - آل عمران ﴾

أحوال المقسم عليه

١ - المقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه ، فلابد أن يكون مما يحسن فيه ذلك ، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها

٢ - وجواب القسم يذكر تارة - وهو الغالب - وتارة يحذف كما يحذف جواب لو كثيراً ، كقوله ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴿ ٥ - التكاثر ﴾ وحذف مثل هذا من أحسن الأساليب ، لأنه يدل على التفخيم والتعظيم ، فالتقدير مثلا : لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم ما لا يوصف من الخير ، فحذف جواب القسم كقوله ﴿ والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴿ ١ : ٦ - الفجر ﴾ فالمراد بالقسم أن الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عز وجل به . فلا يحتاج إلى جواب ، وقيل : الجواب محذوف ، أى : لتعذبن يا كفار مكة ، وقيل : مذكور ، وهو قوله ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴿ ١٤ - الفجر ﴾ والصحيح المناسب أنه لا يحتاج إلى جواب

وقد يحذف الجواب لدلالة المذكور عليه ، كقوله تعالى ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد ﴿ أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه . . الخ ﴾ والتقدير : لتبعثن ولتحاسبن

٣ - والماضى المثبت المتصرف الذى لم يتقدم معموله إذا وقع جوابا للقسم تلزمه اللام وقد ، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام . كقوله تعالى ﴿ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها ﴿ ١ : ٨ - الشمس ﴾ فجواب القسم ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ حذفت منه اللام لطول الكلام

ولذلك قالوا فى قوله تعالى ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد

ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود « ١ : ٤ - البروج ﴾ : إن الأحسن أن يكون هذا القسم مستغنيا عن الجواب ، لأن القصد التنبيه على المقسم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة ، وقيل الجواب محذوف دل عليه ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ أى أنهم ملعونون ، يعنى كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود ، وقيل حذف صدره ، وتقديره : لقد قتل ، لأن الفعل الماضى إذا وقع جوابا للقسم تلزمه اللام وقد ، ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام ، كما سبق فى قوله تعالى ﴿ والشمس وضحاها . . . . قد أفلح من زكاها ﴾

٤ - ويقسم الله على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على التوحيد كقوله ﴿ والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا ، إن إلهكم لواحد « ١ : ٤ - الصافات ﴾

وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم « ٧٥ : ٧٧ - الواقعة ﴾

وتارة على أن الرسول حق كقوله ﴿ يس والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين « ١ : ٣ - يس ﴾

وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ، كقوله ﴿ والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا ، إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع « ١ : ٦ - الذاريات ﴾

وتارة على حال الإنسان ، كقوله ﴿ والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى « ١ : ٤ - الليل ﴾

والمتتبع لأقسام القرآن يستخلص الفنون الكثيرة

٥ - والقسم إما على جملة خبرية - وهو الغالب - كقوله تعالى ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق « ٢٣ - الذاريات ﴾ ، وإما على جملة طلبية فى المعنى كقوله تعالى ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ، عما كانوا يعملون « ٩٢ ، ٩٣ - الحجر ﴾ لأن المراد التهديد والوعيد

١٠
جدل القرآن

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا تحتاج إلى برهان على ثبوتها ، أو دليل على صحتها . ولكن المكابرة كثيراً ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشبه تلبسها لباس الحق ، وتزينها فى مرآة العقل ، فهى فى حاجة إلى مقارعتها بالحجة ، واستدراجها إلى مايلزمها بالاعتراف آمنت أو كفرت. والقرآن الكريم ـ وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة ـ وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله ، فألجم خصومتهم بالحس والعيان ، وعارضهم فى أسلوب مقنع ، واستدلال ملزم ، وجدل محكم

تعريف الجدل

والجدل والجدال : ـ المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم ، أصله من جدلت الحبل : أى أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه

وقد ذكره الله فى القرآن على أنه من طبيعة الإنسان فى قوله ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ٭ ٥٤ ـ الكهف ﴾ أى خصومة ومنازعة

وأمر رسول الله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التى تلين عريكتهم فى قوله ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ٭ ١٢٥ ـ النحل ﴾

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة فى قوله ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ٭ ٤٦ ـ العنكبوت ﴾

ومثل هذا من قبيل المناظرة التى تهدف إلى إظهار الحق ، وإقامة البرهان على صحته ،

وهى الطريقة التى يشتمل عليها جدل القرآن فى هداية الكافرين ، وإلزام المعاندين . بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة ، قال تعالى ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل * ٥٦ - الكهف ﴾

طريقة القرآن فى المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيراً من الأدلة والبراهين التى حاجَّ بها خصومه فى صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة ، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع فى أسلوب واضح النتائج ، سليم التركيب ، لا يحتاج إلى تعمل عقل أو كثير بحث

ولم يسلك القرآن فى الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية فى المقدمات والنتائج التى يعتمدون عليها ، من الاستدلال بالكلى على الجزئى فى قياس الشمول ، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر فى قياس التمثيل ، أو الاستدلال بالجزئى على الكلى فى قياس الاستقراء .

ا - لأن القرآن جاء بلسان العرب ، وخاطبهم بما يعرفون

ب - ولأن الاعتماد فى الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكرى عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة

حـ - ولأن ترك الجلى من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفى نوع من الغموض والإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة ، وهو على طريقة المناطقة ليس سليما من كل وجه ، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة فى القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية : قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتابه (الرد على المنطقيين) : « وما يذكره النظار من الأدلة القياسية التى يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شىء منها على عينه ، وإنما يدل على أمر مطلق كلى لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، فإنا إذا قلنا : هذا محدَث ، وكل محدث فلا بد له من محدِث . أو ممكن ، والممكن لابد له من واجب ، إنما يدل هذا على محدث مطلق ، أو واجب مطلق . . . لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه » . . .

وقال : « فبرهانهم لا يدل على شيء معين بخصوصه ، لا واجب الوجود ولا غيره ، وإنما يدل على أمر كلي ، والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه ، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه ، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله » . . وقال : « وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه ، كقوله : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار — إلى قوله — لقوم يعقلون « ١٦٤ - البقرة ﴾ وقوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، لقوم يتفكرون ﴾ وغير ذلك ، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار . . . وقال تعالى ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب « ١٢ - الإسراء ﴾ فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره ، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه ، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه » .

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد ، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولي أو تمثيلي ، بل هي مستلزمة لمدلولها عينا ، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول ، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها ، وهذا النوع من الاستدلال بدهي يستوي في إدراكه كل العقول

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

ا - ما يذكره الله تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته ، والايمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر — وهذا النوع كثير في القرآن

فمنه قوله تعالى ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون — إلى قوله — فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون « ٢١ ، ٢٢ - البقرة ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم — إلى قوله — لآيات لقوم يعقلون « ١٦٣ ، ١٦٤ - البقرة ﴾

ب - ما يرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد ، ولهذا صور مختلفة : —

١ — منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التى يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره ، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق فى مثل قوله تعالى ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون — إلى قوله — سبحان الله عما يشركون ﴾ ٣٥ — ٤٣ الطور ﴾

٢ — الاستدلال بالمبدأ على المعاد . كقوله تعالى ﴿ أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد ؟ ١٥ - ق ﴾ وقوله ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ٣٦ - ٤٠ ، القيامة ﴾ وقوله ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر ٥ : ٨ - الطارق ﴾ — ومثله الاستدلال بحياة الأرض على الحياة بعد الموت للحساب كقوله ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى ٣٩ - فصلت ﴾

٣ — إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها — كقوله تعالى ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ٩١ - الأنعام ﴾ رداً على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾

٤ — السبر والتقسيم - بحصر الأوصاف ، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم ، كقوله تعالى ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين — إلى قوله — إن الله لا يهدى القوم الظالمين ١٤٢ — ١٤٤ ، الأنعام ﴾

٥ — إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يعترف به أحد - كقوله تعالى ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم

سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ١٠٠ - ١٠١ ، الأنعام ﴾ فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد ، وأن التولد إنما يكون بين اثنين ، وهو سبحانه لا صاحبة له ، وأيضاً فإنه خلق كل شيء ، وخلقه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلا بإرادته ، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالارادة والفاعل بالطبع ، فيمتنع مع كونه عالما أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور — كالحار والبارد ، فلا يجوز إضافة الولد إليه [1]

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة ، كمناظرة الأنبياء مع أممهم ، أو فريق المؤمنين مع المنافقين ، وما شابه ذلك

١ — هذه الفقرة (٥) من كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وهي رائعة في الاستدلال

١١
قصص القرآن

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع . فاذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفتها من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس ، والموعظة الخطابية التي تسرد سردا لا يجمع العقل أطرافها ولا يعي جميع مايلقى فيها ، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها ، ويرتاح المرء لسماعها ، ويصغى اليها بشوق ولهفة ، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات ، وقد أصبح أدب القصة اليوم فنا خاصا من فنون اللغة وآدابها ، والقصص الصادق يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل ، ويصوره في أبلغ صورة قصص القرآن الكريم

معنى القصص

القصّ : تتبع الأثر ، يقال : قصصت أثره : أي تتبعته ، والقصص مصدر ، قال تعالى ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ٦٤ ـ الكهف ﴾ أي رجعا يقصان الأثر الذي جاءا به . وقال على لسان أم موسى ﴿ وقالت لأخته قصيه ١١ ـ القصص ﴾ أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه

والقصص كذلك : الأخبار المتتبعة ، قال تعالى ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ٦٢ ـ آل عمران ﴾ وقال ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لاولى الالباب ١١١ ـ يوسف ﴾ والقصة : الامر ، والخبر ، والشأن ، والحال

وقصص القرآن : إخباره عن أحوال الامم الماضية ، والنبوات السابقة ، والحوادث الواقعة ـ وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي ، وتاريخ الامم ، وذكر البلاد والديار . وتتبع آثار كل قوم ، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه

أنواع القصص فى القرآن

والقصص فى القرآن ثلاثة أنواع :

النوع الأول :ـ قصص الأنبياء ، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم ، والمعجزات التى أيدهم الله بها ، وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها ، وعاقبة المؤمنين والمكذبين . كقصص نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وهارون ، وعيسى ومحمد ، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام

النوع الثانى : قصص قرآنى يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم تثبت نبوتهم ، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . وطالوت وجالوت ، وابنى آدم ، وأهل الكهف ، وذى القرنين ، وقارون ، وأصحاب السبت ، ومريم ، وأصحاب الأخدود ، وأصحاب الفيل ونحوهم

النوع الثالث :ـ قصص يتعلق بالحوادث التى وقعت فى زمن رسول الله ﷺ كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران ، وغزوة حنين وتبوك فى التوبة ، وغزوة الأحزاب فى سورة الأحزاب ، والهجرة ، والإسراء ، ونحو ذلك

فوائد قصص القرآن

وللقصص القرآنى فوائد نجمل أهمها فيما يأتى :ـ

١ ـ إيضاح أسس الدعوة إلى الله ، وبيان أصول الشرائع التى بعث بها كل نبى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ٭ ٢٥ ـ الأنبياء ﴾

٢ ـ تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده ، وخذلان الباطل وأهله ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ٭ ١٢٠ ـ هود ﴾

٣ ـ تصديق الانبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم

٤ - إظهار صدق محمد ﷺ فى دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال

٥ - مقارعته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى ، وتحديه لهم بما كان فى كتبهم قبل التحريف والتبديل ، كقوله تعالى ﴿ كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين « ٩٣ - آل عمران ﴾

٦ - والقصص ضرب من ضروب الأدب ، يصغى إليه السمع ، وترسخ عبره فى النفس ، ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب « ١١١ - يوسف ﴾

تكرار القصص وحكمته

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذى تكرر فى غير موضع ، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها فى القرآن ، وتعرض فى صور مختلفة فى التقديم والتأخير ، والإيجاز والإطناب ، وما شابه ذلك . ومن حكمة هذا :

١ - بيان بلاغة القرآن فى أعلى مراتبها . فمن خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد فى صور مختلفة ، والقصة المتكررة ترد فى كل موضع بأسلوب يتمايز عن الآخر ، وتصاغ فى قالب غير القالب ، ولا يمل الإنسان من تكرارها ، بل تتجدد فى نفسه معان لا تحصل له بقراءتها فى المواضع الأخرى

٢ - قوة الإعجاز - فإيراد المعنى الواحد فى صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ فى التحدى

٣ - الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبرها فى النفس ، فإن التكرار من طرق التأكيد وأمارات الاهتمام. كما هو الحال فى قصة موسى مع فرعون ، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل - مع أن القصة لا تكرر فى السورة الواحدة مهما كثر تكرارها

٤ - اختلاف الغاية التى تساق من أجلها القصة - فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض فى مقام ، وتبرز معان أخرى فى سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال

١٢
التفسير والتأويل

القرآن الكريم هو مصدر التشريع الأول للأمة المحمدية، وعلى فقه معناه ومعرفة أسراره تتوقف سعادتها، ولا يستوى الناس جميعا فى فهم ألفاظه وعباراته مع وضوح بيانه وتفصيل آياته، فإن تفاوت الإدراك بينهم أمر لامراء فيه، فالعامى يدرك من المعانى ظاهرها ومن الآيات مجملها، والذكى يستخرج منها المعنى الرائع، وبين هذا وذاك مراتب فهم شتى، فلا غرو أن يجد القرآن من أبناء أمته اهتماما بالغا فى الدراسة لتفسير غريب، أو تأويل تركيب

معنى التفسير والتأويل

التفسير :ـ تفعيل من الفسر بمعنى الإبانة والكشف وإظهار المعنى المعقول، وفعله كضرب ونصر، وصيغة التفعيل للمبالغة

والتأويل :ـ من الأوْل : أى الرجوع إلى الأصل، يقال آل إليه أوْلا ومآلا : رجع

فتأويل الكلام : ما أوله إليه المتكلم، أو مايؤول إليه الكلام ويرجع. والكلام إنما يرجع ويعود إلى حقيقته التى هى عين المقصود، وهو نوعان : إنشاء وإخبار، ومن الإنشاء الأمر، فتأويل الأمر : هو الفعل المأمور به، ومن ذلك ما فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت «كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى، يتأول القرآن» تعنى قوله تعالى ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ٥ ٢ ـ النصر﴾ وتأويل الإخبار : هو عين المخبر به إذا وقع، كقوله تعالى ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون،

هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل « ٥٢ ، ٥٣ - الأعراف ﴾ فقد أخبر أنه فصل الكتاب ، وأنهم لا ينتظرون إلا تأويله ، أى مجىء ما أخبر القرآن بوقوعه ، من القيامة وأشراطها ، وما فى الآخرة من الصحف والموازين والجنة والنار وغير ذلك ، فحينئذ يقولون : « قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل » والتأويل فى عرف المتأخرين : - هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا الاصطلاح لا يتفق مع ما يراد بلفظ التأويل فى القرآن عند السلف

الفرق بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء فى الفرق بين التفسير والتأويل ، وعلى ضوء ما سبق فى معنى التفسير والتأويل نستطيع أن نستخلص ما يأتى من الآراء :

١ - إذا قلنا إن التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه ، فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان أو مترادفان ، ومنه دعوة رسول الله ﷺ لابن عباس « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل »

٢ - وإذا قلنا إن التأويل هو نفس المراد بالكلام . فتأويل الطلب نفس الفعل المطلوب ، وتأويل الخبر نفس الشىء المخبر به ، فعلى هذا يكون الفرق كبيراً بين التفسير والتأويل ، لأن التفسير شرح وإيضاح للكلام ، ويكون وجوده فى الذهن بتعقله ، وفى اللسان بالعبارة الدالة عليه ، أما التأويل فهو نفس الأمور الموجودة فى الخارج ، فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها ، وهذا هو الغالب فى لغة القرآن كما تقدم ، قال تعالى ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله « ٣٨ ، ٣٩ - يونس ﴾

٣ - وقيل : التفسير : ما وقع مبينا فى كتاب الله ومعينا فى صحيح السنة ، لأن معناه قد ظهر ووضح ، والتأويل : ما استنبطه العلماء

٤ ـ وقيل : التفسير : أكثر ما يستعمل فى الألفاظ ومفرداتها ، والتأويل : أكثر ما يستعمل فى المعانى والجمل — وقيل غير ذلك

شرف التفسير

والتفسير من أجلّ علوم الشريعة وأرفعها قدراً ، وهو أشرف العلوم موضوعا وغرضا وحاجة إليه . لأن موضوعه كلام الله تعالى الذى هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ، ولأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية ، وإنما اشتدت الحاجة إليه لأن كل كمال دينى أو دنيوى لا بد وأن يكون موافقا للشرع ، وموافقته تتوقف على العلم بكتاب الله تعالى

١٣

ترجمة القرآن

يتوقف نجاح الدعوة إلى حد كبير على التقارب بين الداعية وأمته ، فالداعية الذى ينبت من صميم البيئة يكون على دراية كاملة بمسالك الغواية ودروب الجهالة التى يغشاها قومه ، يعرف نفوسهم والأبواب التى يطرقها منها حتى تتفتح لتعاليم دعوته وتهتدى بهداها ، والتخاطب بينهما رمز للتجانس الاجتماعى فى جميع صوره ، وصدق الله ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ٭ ٤ - ابراهيم ﴾

وقد نزل القرآن الكريم على الرسول العربى بلسان عربى مبين ، فكانت هذه الظاهرة ضرورة اجتماعية لنجاح رسالة الإسلام ، ومنذ ذلك الحين أصبحت اللغة العربية جزءا من كيان الإسلام وأساساً للتخاطب فى إبلاغ دعوته ، وقد بعث رسول الله ﷺ إلى الإنسانية كافة ، وأعلن ذلك القرآن فى غير موضع ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ٭ ١٥٨ - الأعراف ﴾ ، ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ٭ ٢٨ - سبأ ﴾ . ونشأت نواة الدولة الإسلامية فى جزيرة العرب ، ولا شك أن اللغة تحيا بحياة أمتها وتموت بموتها ، فكانت نشأة الدولة الإسلامية على هذا النحو حياة للغة العرب ، فالقرآن وحى الإسلام ، والإسلام دين الله المفروض ، ولن يتأتى معرفة أصوله وأسسه إلا إذا فهم القرآن بلغته ، فأخذت موجة الفتح الإسلامى تمتد إلى الألسنة الأخرى الأعجمية فتعربها بالإسلام - وصار لزاما على كل من يدخل فى حوزة هذا الدين الجديد أن يستجيب له فى لغة كتابه باطناً وظاهراً ، حتى يستطيع القيام بواجباته ، ولم يكن هناك حاجة إلى ترجمة القرآن له ما دام القرآن قد ترجم لسانه وعربه إيماناً وتسليما

معنى الترجمة

والترجمة تطلق على معنيين : -

أولها . الترجمة الحرفية : - وهى نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من اللغة الآخرى بحيث يكون النظم موافقا للنظم ، والترتيب موافقا للترتيب

ثانيهما : الترجمة التفسيرية أو المعنوية : - وهى بيان معنى الكلام بلغة أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل أو مراعاة لنظمه

والذين على بصر باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية بالمعنى المذكور لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل والإحاطة بجميع معناه ، فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى فى ترتيب أجزاء الجملة ، فالجملة الفعلية فى اللغة العربية تبدأ بالفعل فالفاعل فى الاستفهام وغيره ، والمضاف مقدم على المضاف إليه ، والموصوف مقدم على الصفة ، إلا إذا أريد الإضافة على وجه التشبيه مثلا كلجين الماء ، أو كان الكلام من إضافة الصفة إلى معمولها كعظيم الأمل ، وليس الشأن كذلك فى سائر اللغات . والتعبير العربى يحمل فى طياته من أسرار اللغة ما لا يمكن أن يحل محله تعبير آخر بلغة أخرى ، فإن الألفاظ فى الترجمة لا تكون متساوية المعنى من كل وجه فضلا عن التراكيب

حكم الترجمة الحرفية

ولهذا لا يجد المرء أدنى شبهة فى حرمة ترجمة القرآن ترجمة حرفية ، فالقرآن كلام الله المنزل على رسوله المعجز بألفاظه ومعانيه المتعبد بتلاوته ، ولا يقول أحد من الناس إن الكلمة من القرآن إذا ترجمت يقال فيها إنها كلام الله ، فإن الله لم يتكلم إلا بما نتلوه بالعربية ، ولن يتأتى الإعجاز بالترجمة لأن الإعجاز خاص بما أنزل باللغة العربية ، والذى يتعبد بتلاوته هو ذلك القرآن العربى المبين بألفاظه وحروفه وترتيب كلماته

فترجمة القرآن الحرفية على هذا مهما كان المترجم على دراية باللغات وأساليبها

وتراكيبها تخرج القرآن عن أن يكون قرآنا ، وهذا هو ما عناه شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتاب اقتضاء الصراط المستقيم عند الحديث عن اختلاف الفقهاء فى أذكار الصلاة : هل تقال بغير العربية أم لا ؟ وأعلاها القرآن ، قال : « فأما القرآن فلا يقرؤه بغير العربية سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور ، وهذا هو الصواب الذى لاريب فيه ، بل قد قال غير واحد إنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الإعجاز » فأنت ترى أن هذا قريب مما ذكرناه لك آنفاً ، وقد خص السورة أو مايقوم به الإعجاز إشارة إلى أقل ما وقع فيه التحدى

والدين يوجب على معتنقيه تعلم العربية لأنها لغة القرآن ومفتاح فهمه ، قال ابن تيمية فى الاقتضاء « وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب ، فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهمان إلا بفهم اللغة العربية ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب »

أما اختلاف الأحناف فى جواز الصلاة بترجمة القرآن ، فالمجيزون يرون إباحة هذا عند العجز على أنها رخصة — وهم متفقون على أنها لا تسمى قرآنا — فهى لمجرد الإجزاء فى الصلاة ، ومثلها مثل ذكر الله عند غير الحنفية ، والذكر فى الصلاة مختلف فيه سواء كان واجباً كتكبيرة الإحرام أو غير واجب ، فقد منع ترجمة الأذكار الواجبة مالك واسحاق وأحمد فى أصح الروايتين ، وأباحها أبو يوسف ومحمد والشافعى ، وسائر الأذكار لا يترجم عند مالك واسحاق وبعض أصحاب الشافعى ، ومتى فعل بطلت صلاته ، ونص الشافعى على الكراهة ، وهو قول أصحاب أحمد إذا لم يحسن العربية

حكم الترجمة المعنوية

أما الترجمة المعنوية فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ برسالة الإسلام إلى البشرية كافة على اختلاف أجناسها وألوانها ، وفى حديث خواص الرسول فى الصحيحين « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة » وشرط لزوم الرسالة البلاغ ، والقرآن الذى نزل بلغة العرب صار إبلاغه للأمة العربية ملزما لها ، ولكن سائر الأمم التى لا تحسن العربية أولا تعرفها يتوقف إبلاغها الدعوة على ترجمتها بلسانها ،

وقد عرفنا قبلُ استحالة الترجمة الحرفية وحرمتها ، فلم يبق إلا أن تترجم معانى القرآن وأسس دعوته بما يتفق مع نصوص الكتاب وصريح السنة إلى لسان كل قبيل حتى تبلغهم الدعوة وتلزمهم الحجة ، وإذا كان إبلاغ الدعوة من واجبات الإسلام فإن ما يتوقف على هذا الإبلاغ من دراسة اللغات ونقل أصول الإسلام إليها واجب كذلك ، كما أن معرفتنا لهذه اللغات تمكننا من دراسة كتبها للرد على المبشرين الذين غزوا عود الإسلام من بعيد أو قريب والاستفادة مما عندهم من خير ، وهذا هو ما عناه شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه « العقل والنقل » عندما قال : « وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك ، وكانت المعانى صحيحة ، كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم ، فإن هذا جائز حسن للحاجة ، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه » ثم قال : « ولذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهمه إياه بالترجمة ، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ، ويترجم بالعربية ، كما أمر النبى ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك ، حيث لم يأتمن اليهود عليه »

ولعلك تلحظ بعد هذا الفرق بين الترجمة الحرفية للقرآن وترجمة معناه ، فالأولى هى المحرمة ، والثانية هى وسيلة البلاغ لألسنة البشر

كلمة

إن الظاهرة التى نشاهدها الآن فى ضرورة تعلم اللغات الأجنبية للأمة العربية ، حتى تتمكن من إرسال بعثاتها العلمية إلى جامعات الدول الأخرى أو دراسة أمهات الكتب فى جامعاتها لأنها بلغة أجنبية لمؤلفين أجانب ، هذه الظاهرة دعت إليها الحاجة إلى الثقافة ، ونحن نراها تنشر سيطرتها على تفكير الكثير منا وتحدد اتجاهه فى الحياة ، وتصل إلى درجة الولوع بها والشغف بالتوسع فى فنونها ، وقد كان لها الأثر البالغ فى الأخلاق والعادات والتقاليد مما جعل حياتنا العامة فى شتى صورها تخرج عن سمت الإسلام وطابع فضائله ، ولم تكن الأمم الأخرى فى حاجة إلى ترجمة كتبها إلى اللغة العربية لما لها من المكانة العلمية ، فلو ظلت دولة الإسلام فى طريق نهضتها الأولى

علما وخلقا وثقافة وسياسة لرمقها العالم من جميع أطراف المعمورة ، وتطلع إلى دراسة اللغة العربية لينهل من معين نتاج الإسلام الفكرى ويروى ظمأه من معارفه ، ولرأى فى هذا حاجته بمثل ما نرى نحن اليوم حاجتنا إلى لغته

فالحديث عن ترجمة القرآن من مظاهر ضعف دولته ، وحرى بنا أن يتجه نظرنا إلى تكوين دولة القرآن وتوطيد دعائم نهضتها على أساس من العلم والمعرفة ، فهى وحدها الكفيلة بالسيطرة الروحية على أجناس البشر وتعريب ألسنتهم ، وإذا كان الإسلام هو دين الإنسانية كافة ، فالشأن فى لغته حين نعمل على تحقيق ما كتبه الله له من العزة أن تكون كذلك

١٤

شروط المفسر وادابه

البحث العلمى النزيه أساس المعرفة الحقة التى تعود على طلابها بالنفع ، وثمرته من أشهى الآكل لغذاء الفكر وتنمية العقل ، ولذلك فإن تهيؤ أسبابه لأى باحث أمر له اعتباره فى نضج ثماره ودنو قطوفه ، والبحث فى العلوم الشرعية عامة وفى التفسير خاصة من أهم ما يجب الاعتناء به والتعرف على شروطه وآدابه ، حتى يصفو مشربه ، ويحفظ روعة الوحى وجلاله

شروط المفسر

وقد ذكر العلماء للمفسر شروطاً نجملها فيما يأتى :-

١ — صحة الاعتقاد : فإن العقيدة لها أثرها فى نفس صاحبها ، وكثيرا ما تحمل ذويها على تحريف النصوص والخيانة فى نقل الأخبار ، فإذا صنف أحدهم كتاباً فى التفسير أول الآيات التى تخالف عقيدته ، وحملها باطل مذهبه ، ليصد الناس عن اتباع السلف ، ولزوم طريق الهدى

٢ — التجرد من الهوى : فالأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذهبهم ، فيغرون الناس بلين الكلام ولحن البيان ، كدأب طوائف القدرية والرافضة والمعتزلة ونحوهم من غلاة المذاهب

٣ — أن يبدأ أولا بتفسير القرآن بالقرآن ، فما أجمل منه فى موضع فإنه قد فصل فى موضع آخر ، وما اختصر منه فى مكان فإنه قد بسط فى مكان آخر

٤ — أن يطلب التفسير من السنة شارحة للقرآن موضحة له ، وقد ذكر القرآن أن أحكام رسول الله ﷺ إنما تصدر منه عن طريق الله ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب

بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله « ١٠٥ ـ النساء ﴾ وذكر الله أن السنة مبينة للكتاب ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون « ٤٤ ـ النحل ﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ « ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه » يعنى السنة. وقال الشافعى رضى الله عنه « كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن » وأمثلة هذا فى القرآن كثيرة ـ جمعها صاحب الإتقان مرتبة مع السور فى آخر فصل من كتابه كتفسير السبيل بالزاد والراحلة ، وتفسير الظلم بالشرك ، وتفسير الحساب اليسير بالعرض

٥ — فإذا لم يجد التفسير من السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح

٦ — فإذا لم يجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا فى أقوال الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين ، كمجاهد بن جبر ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، ومسروق بن الأجدع ، وسعيد بن المسيب ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم ، وغيرهم من التابعين ، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة ، وربما تكلموا فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال ، والمعتمد فى ذلك كله النقل الصحيح ، ولهذا قال أحمد : « ثلاث كتب لا أصل لها ، المغازى والملاحم والتفسير »

٧ — العلم باللغة العربية وفروعها : فإن القرآن نزل بلسان عربى ، ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع ، قال مجاهد : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب »

والمعانى تختلف باختلاف الإعراب ، ومن هنا مست الحاجة إلى اعتبار علم النحو. والتصريف تعرف به الأبنية ، والكلمة المبهمة يتضح معناها بمصادرها ومشتقاتها. وخواص تراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى ، ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها . ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام ـ وهى علوم البلاغة الثلاثة المعانى

والبيان والبديع ـ من أعظم أركان المفسر . إذ لابد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز ، وإنما يدرك الإعجاز بهذه العلوم

٨ — العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن ، كعلم القراءات الذى يترجم به بعض وجوه الاحتمال على بعض ، وعلم التوحيد ، حتى لا يؤول آيات الكتاب التى فى حق الله وصفاته تأويلا يتجاوز به الحق ، وعلم الأصول ، وأصول التفسير خاصة مع التعمق فى أبوابه التى لا يتضح المعنى ولا يستقيم المراد بدونها ، كمعرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، ونحو ذلك

٩ — دقة الفهم التى تمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر ، أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة

آداب المفسر

١ — حسن النية وصحة المقصد ـ فإنما الأعمال بالنيات ، والعلوم الشرعية أولى بأن يكون هدف صاحبها منها الخير العام ، وإسداء المعروف لصالح الإسلام ، وأن يتطهر من أعراض الدنيا ليسدد الله خطاه ، والانتفاع بالعلم ثمرة الإخلاص فيه

٢ — حسن الخلق : فالمفسر فى موقف المؤدب ، ولا تبلغ الآداب مبلغها فى النفس إلا إذا كان المؤدب مثالا يحتذى فى الخلق والفضيلة ، والكلمة النابية قد تصرف الطالب عن الاستفادة بما يسمع أو يقرأ وتقطع عليه مجرى تفكيره

٣ — الامتثال والعمل :ـ فإن العلم يجد قبولا من العاملين أضعاف ما يجد من سمو معارفه ودقة مباحثه ـ وحسن السيرة يجعل المفسر قدوة حسنة لما يقرره من مسائل الدين ، وكثيرا ما يصد الناس عن تلقى العلم من بحر زاخر فى المعرفة لسوء سلوكه وعدم تطبيقه

٤ — تحرى الصدق والضبط فى النقل : فلا يتكلم أو يكتب إلا عن تثبت لما يرويه حتى يكون فى مأمن من التصحيف واللحن

٥ — التواضع ولين الجانب :ـ فالصلف العلمى حاجز حصين يحول بين العالم والانتفاع بعلمه

٦ — عزة النفس : ـ فمن حق العالم أن يترفع عن سفساف الامور ، ولا يغشى أعتاب ذوى الجاه والسلطان كالسائل المتكفف

٧ — الجهد بالحق : ـ فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر

٨ — حسن السمت : ـ الذى يكسب المفسر هيبة ووقارا فى مظهره العام وجلوسه ووقوفه ومشيه

٩ — الأناة والروية : فلا يسرد الكلام سرداً بل يفصله ويبين عن مخارج حروفه

١٠ — تقديم من هو أولى منه : فلا يتصدى للتفسير بحضرتهم وهم أحياء ، ولا يغمطهم حقهم بعد الممات ، بل يرشد إلى الأخذ عنهم وقراءة كتبهم

١١ — حسن الإعداد وطريقة الأداء : كأن يبدأ بذكر سبب النزول ، ثم معانى المفردات وشرح التراكيب وبيان وجوه الإعراب والبلاغة ، ثم يبين المعنى العام ، ثم يأتى إلى الاستنباط وذكر الأحكام ، أما ذكر المناسبة والربط بين الآيات أولا أو آخراً فذلك حسب ما يقتضيه النظم والسياق

١٥
غرائب التفسير

من الناس من له شغف بالإغراب فى القول وإن حاد عن الجادة وركب مسلكا وعراً ، فكلفوا أنفسهم من الأمر ما لا يطيقون ، وأعملوا فكرهم فيما لا يعلم إلا بالتوقيف ، فخرجوا وليس فى يدهم سوى ما تسفيه عقولهم من الرعونة والغى ، ولهذا عجائب فى معانى آيات من القرآن نذكر من غرائبها :ـ

١ — قول من قال فى (الم) معنى ألف : ألفَ الله محمداً فبعثه نبياً ـ ومعنى لام : لامه الجاحدون وأنكروه ـ ومعنى ميم : ميمَ الجاحدون المنكرون كقيل ، من المؤم بالضم وهو البرسام : علة يُهذَى فيها

٢ — قول من قال فى (حم عسق) إن الحاء : حرب على ومعاوية ـ والميم : المروانية ، نسبة إلى مروان من بنى أميه ، والعين : ولاية العباسية ـ والسين : ولاية السفيانية ـ والقاف : قدوة مهدى

٣ — ما ذكره ابن فورك فى تفسيره فى قوله تعالى ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ٭ ٢٦٠ ـ البقرة ﴾ إن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه ، أى ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عيانا

٤ — قول أبى معاذ النحوى فى قوله تعالى ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً ٭ ٨٠ ـ يس ﴾ يعنى من إبراهيم ناراً ، أى نوراً هو محمد ﷺ ﴿ فإذا أنتم منه توقدون ﴾ تقتبسون الدين

١٦
طبقات المفسرين

١ — المفسرون من الصحابة : ـ واشتهر منهم الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله ابن الزبير ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة ، وجابر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وأكثر من روى عنه من الخلفاء الأربعة على بن أبى طالب ، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً ، وكان السبب فى ذلك تقدم وفاتهم ، كما أن ذلك هو السبب فى قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه ، فقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبى الطفيل قال : « شهدت عليا يخطب وهو يقول : سلونى فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم ـ وسلونى عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل أم فى جبل »

وأما ابن مسعود فروى عنه أكثر مما روى عن على ، وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال : « والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته » وأما ابن عباس فسنترجم له بعد إن شاء الله

٢ — المفسرون من التابعين : ـ قال ابن تيمية : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد ، وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاوس وغيرهم ـ وفى الكوفة أصحاب ابن مسعود ـ وفى المدينة زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ، ومالك بن أنس ، ومن أصحاب ابن مسعود علقمة ، والأسود بن يزيد ، وابراهيم النخعى ، والشعبى ، ومن هذه الطبقة : الحسن البصرى ، وعطاء بن أبى سلمة ميسرة الخراسانى ، ومحمد بن كعب

القرظى ، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحى ، والضحاك بن مزاحم ، وعطية ابن سعد العوفى . وقتادة بن دعامة السدوسى ، والربيع بن أنس ، والسدى - فهؤلاء قدماء المفسرين من التابعين ، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة

٣ — ثم بعد هذه الطبقة طبقة الذين صنف كثير منهم كتب التفاسير التى تجمع أقوال الصحابة والتابعين ، كسفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبى إياس ، واسحاق بن راهويه ، وعبد بن حميد ، وروح بن عبادة ، وأبى بكر بن أبى شيبة ، وآخرين

٤ — ثم بعد هؤلاء طبقات أخرى منها على بن أبى طلحة ، وابن جرير الطبرى ، وابن أبى حاتم ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ بن حبان ، وابن المنذر فى آخرين ، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم ، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط ، فهو يفوقها بذلك

٥ — ثم انتصبت طبقة بعدهم إلى تصنيف تفاسير مشحونة بالفوائد محذوفة الأسانيد ، مثل أبى اسحاق الزجاج ، وأبى على الفارسى ، وأبى بكر النقاش ، وأبى جعفر النحاس ، وأبى العباس المهدوى

٦ — ثم ألف فى التفسير طائفة من المتأخرين . فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال بتراء : فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل

٧ — ثم صار كل من سنح له قول يورده ، ومن خطر بباله شىء يعتمده . ثم ينقل ذلك عنه من يجىء بعده ظاناً أن له أصلا ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ، ومن هم القدوة فى هذا الباب - قال السيوطى : رأيت فى تفسير قوله تعالى ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ نحو عشرة أقوال ، مع أن الوارد عن النبى ﷺ وجميع الصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى ، حتى قال ابن أبى حاتم : لا أعلم فى ذلك اختلافا من المفسرين

٨ — ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا فى شىء من العلوم . منهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن ، واقتصر فيه على ما تمهر هو فيه ، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير ، مع أن فيه تبيان كل شىء

فالنحوى نراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة ، وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كأبى حيان فى البحر والنهر

والإخبارى همه القصص واستيفاؤه ، والإخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة . ومنهم الثعلبى

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التى لا تعلق لها بالآية أصلا ، والجواب عن أدلة المخالفين ، كالقرطبى

وصاحب العلوم العقلية ، خصوصاً الامام فخر الدين الرازى ، قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، وخرج من شىء إلى شىء ، حتى يقضى الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية . قال أبو حيان فى البحر : جمع الامام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها فى علم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شىء إلا التفسير

والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث إنه لو لاح له شاردة من بعيد اقتنصها ، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه ، كما نقل عن البلقينى أنه قال : استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش ، منها أنه قال فى قوله سبحانه وتعالى ﴿ فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ¤ ١٨٥ - آل عمران ﴾ أى فوز أعظم من دخول الجنة ؟ أشار به إلى عدم الرؤية

وهكذا الشأن بالنسبة إلى الملحدين والرافضة وغيرهم

١٧

تراجم لبعض مشاهير المفسرين

ابن عباس

نسبه وحياته : ـ هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ ، أمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية ، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث ، وقيل بخمس ، والأول أثبت

وقد حج عبد الله بن عباس سنة قتل عثمان بأمر منه ، وكان على الميسرة يوم صفين ، وولاه على البصرة ، فلم يزل ابن عباس عليها حتى قتل على فاستخلف على البصرة عبد الله بن الحارث ومضى إلى الحجاز . وتوفى بالطائف سنة خمس وستين ، وقيل سبع ، وقيل ثمان وهو الصحيح فى قول الجمهور ، قال الواقدى : لا خلاف عند أئمتنا أنه ولد بالشعب حين حصرت قريش بنى هاشم ، وأنه كان له عند موت النبى ﷺ ثلاث عشرة سنة

منزلته وعلمه : ـ وابن عباس ترجمان القرآن ، وحبر الأمة ، ورئيس المفسرين ، فقد أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال : « نعم ترجمان القرآن ابن عباس . وأخرج أبو نعيم عن مجاهد قال : « كان ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه » . وأخرج ابن سعد بسند صحيح عن يحيى بن سعيد الأنصارى : « لما مات زيد بن ثابت قال أبو هريرة : مات حبر هذه الأمة ، ولعل الله أن يجعل فى ابن عباس خلفا »

وقد أحرز ابن عباس منزلته بين كبار الصحابة على صغر سنه بعلمه وفهمه تحقيقاً لدعوة رسول الله ﷺ . فى الصحيح عنه أن النبى ﷺ ضمه إليه وقال : « اللهم علمه الحكمة » . وفى معجم البغوى وغيره عن عمر أنه كان يقرب ابن عباس ويقول : إنى رأيت رسول الله ﷺ دعاك فمسح رأسك ، وتفل فى فيك ، وقال : اللهم فقهه فى

الدين ، وعلمه التأويل » . وأخرج البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ، فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول »

تفسيره : ـ وقد ورد عن ابن عباس فى التفسير مالا يحصى كثرة ، وجمع ما نقل عنه فى تفسير مختصر ممزوج يسمى « تفسير ابن عباس » وفيه روايات وطرق مختلفة ، ولكن أحسن الطرق عنه طريق على بن أبى طلحة الهاشمى عنه ، واعتمد على هذه البخارى فى صحيحه ، ومن جيد الطرق طريق قيس بن مسلم الكوفى عن عطاء ابن السائب

وفى التفاسير الطوال التى أسندوها إلى ابن عباس مجاهيل ، وأوهى طرقه طريق الكلبى عن أبى صالح ، والكلبى هو أبو النصر محمد بن السائب المتوفى سنة ١٤٦ هـ ، فإن انضم إليه رواية محمد بن مروان السدى الصغير المتوفى سنة ١٨٦ هـ فهى سلسلة الكذب ، وكذلك طريق مقاتل بن سليمان بن بسر الأزدى ، إلا أن الكلبى يفضل عليه لما فى مقاتل من المذاهب الرديئة

وطريق الضحاك بن مزاحم الكوفى عن ابن عباس منقطعة ، فإنه لم يلق ابن عباس وإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة فضعيفة لضعف بشر ، وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفا ، لأن جويبرا شديد الضعف متروك

وطريق العوفى عن ابن عباس أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً ، والعوفى ضعيف ليس بواه ، وربما حسن له الترمذى

وبهذا يستطيع القارىء أن ينقب عن الطرق ويعرف منها الجيد المقبول من الضعيف أو المتروك ، فليس كل ما روى عن ابن عباس بالصحيح الثابت

مجاهد بن جبر

نسبه وحياته : هو مجاهد بن جبر المكى أبو الحجاج المخزومى المقرىء ، مولى السائب بن أبى السائب ، روى عن على ، وسعد بن أبى وقاص ، والعبادلة الأربعة ، ورافع ابن خديج ، وعائشة ، وأم سلمة ، وأبى هريرة ، وسراقة بن مالك ، وعبد الله ابن السائب المخزومى ، وخلق كثير . وروى عنه عطاء ، وعكرمة ، وعمرو بن دينار ، وقتادة ، وسليمان الأحول ، وسليمان الأعمش ، وعبد الله بن كثير القارىء ، وآخرون . وكان مولده سنة ٢١ ﻫ إحدى وعشرين فى خلافة عمر ، ومات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة ، وقال يحي القطان : مات سنة ١٠٤ ﻫ أربع ومائة

منزلته : ومجاهد رأس المفسرين من طبقة التابعين حتى قيل إنه كان أعلمهم بالتفسير ، وقد أخذ تفسيره عن ابن عباس ثلاثين مرة ، وعنه أيضاً قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات ، أقف عند كل آية منه وأسأله عنها ، فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟ وقال الثورى : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، قال ابن تيمية : ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخارى وغيرهما من أهل العلم

وقال أبو حاتم : مجاهد لم يسمع من عائشة ، حديثه عنها مرسل ، وقال : مجاهد عن سعد ومعاوية وكعب بن عجرة مرسل ، وقال أبو نعيم : قال يحي القطان : مرسلات مجاهد أحب إلى من مرسلات عطاء ، وقال قتادة : أعلم من بقى بالتفسير مجاهد ، وقال ابن سعد : كان ثقة فقيها عالما كثير الحديث ، وقال ابن حبان : كان فقيهاً ورعا عابداً متقناً ، وقال الذهبي فى آخر ترجمته : أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به ، وقال : قرأ عليه عبد الله بن كثير

وإذا كان الثورى يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، فليس معنى هذا أن نأخذ كل ما نسب إلى مجاهد ، فإن مجاهدا كغيره من الرواة الذين نقل عنهم ، وقد يكون من النقلة عنه الضعيف الذى لا يوثق به ، فلا بد من التحرى وثبوت سلامة السند ، شأنه فى ذلك شأن ابن عباس فيما روى عنه

الطبرى

نسبه وحياته : ـ هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن كثير أبو جعفر الطبرى ، الآملى الأصل . البغدادى المولد والوفاة ـ ولد سنة ٢٢٤ هـ أربع وعشرين ومائتين ، وتوفى سنة ٣١٠ هـ عشر وثلاثمائة ، وكان عالما فذا كثيرا الرواية ذا بصيرة بالنقل والترجيح بين الروايات ، وله باع طويل فى تاريخ الرجال وأخبار الأمم

تصانيفه : ـ صنف ابن جرير من الكتب : جامع البيان فى تفسير القرآن ، وتاريخ الأمم والملوك وأخبارهم ، والآداب الحميدة والأخلاق النفيسة ، وتاريخ الرجال ، واختلاف الفقهاء ، وتهذيب الآثار ، وكتاب البسيط فى الفقه ، والجامع فى فى القراءات ، وكتاب التبصير فى الأصول

تفسيره : ـ وكتابه فى التفسير « جامع البيان فى تفسير القرآن » أجل التفاسير وأعظمها ، وهو المرجع الأصيل للمفسرين بالأثر ، وابن جرير يورد التفسير مسندا إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم ، ويتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض ، وقد أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف فى التفسير مثله ، قال النووى فى تهذيبه : كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله ، ويمتاز ابن جرير بالاستنباط الرائع ، والإشارة إلى ما خفى من الإعراب ، وبذلك كان تفسيره فوق أقرانه من التفاسير ، وأكثر ما ينقل ابن كثير فى تفسيره عن ابن جرير

ابن كثير

نسبه وحياته : ـ هو اسماعيل بن عمر القرشى ابن كثير البصرى ثم الدمشقى ، عماد الدين أبو الفداء الحافظ المحدث الشافعى

ولد سنة ٧٠٥ هـ خمس وسبعمائة ، وتوفى سنة ٧٧٤ هـ أربع وسبعين وسبعمائة ، بعد حياة زاخرة بالعلم ، فقد كان فقيها متقنا ، ومحدثا بارعا ، ومؤرخا ماهرا ، ومفسرا ضابطا ، قال فيه الحافظ ابن حجر « إنه كان من محدثى الفقهاء » وقال « سارت تصانيفه فى البلاد فى حياته ، وانتفع بها بعد وفاته »

تصانيفه : ـ ومن تصانيفه : البداية والنهاية فى التاريخ ، وهو من أهم المراجع للمؤرخين ، والكواكب الدرارى فى التاريخ ، انتخبه من البداية والنهاية ، وتفسير القرآن ، والاجتهاد فى طلب الجهاد ، وجامع المسانيد والسنن الهادى لأقوم سنن ، والواضح النفيس فى مناقب الإمام محمد بن إدريس

تفسيره : ـ قال فيه محمد رشيد رضا : ـ « هذا التفسير من أشهر كتب التفسير فى العناية بما روى عن مفسرى السلف ، وبيان معانى الآيات وأحكامها ، وتحامى ما أطال به الكثيرون من مباحث الإعراب ونكت فنون البلاغة ، أو الاستطراد لعلوم أخرى لا يحتاج إليها فى فهم القرآن ، ولا التفقه فيه ، ولا الاتعاظ به

ومن مزاياه العناية بما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فهو أكثر ما عرفنا من كتب التفسير سردا للآيات المتناسبة فى المعنى ، ويلى ذلك فيه الأحاديث المرفوعة التى تتعلق بالآية وبيان ما يحتج به وما لا يحتج به منها ، ويليهما آثار الصحابة وأقوال التابعين ومن بعدهم من علماء السلف

ومنها تذكيره بما فى التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات وتحذيره منها بالإجمال ، وبيانه لبعض منكراتها بالتعيين ، ويا ليته استقصى ذلك أو ترك إيراد ما لم تتوفر فيه داعية التمحيص والتحقيق » اهـ

فخر الدين الرازى

نسبه وحياته : ـ هو محمد بن عمر بن الحسن التيمى البكرى الطبرستانى الرازى فخر الدين المعروف بابن الخطيب الشافعى الفقيه

ولد بالرى سنة ٥٤٣ هـ ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وتوفى بهراة سنة ٦٠٦ هـ ست وستمائة ـ ودرس العلوم الدينية والعلوم العقلية ، فتعمق فى المنطق والفلسفة ، وبرز فى علم الكلام ، وله فى هذا كله الكتب والشروح والتعليقات ، حتى عدوه من فلاسفة عصره ، ولا تزال كتبه مراجع هامة لمن يسمونهم بالفلاسفة الإسلاميين

تصانيفه : ـ ولفخر الدين الرازى تصانيف كثيرة ، منها : مفاتيح الغيب فى تفسير

القرآن ، وتفسيره أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، وإحكام الأحكام ، والمحصل فى أصول الفقه ، والبرهان فى قراء القرآن ، ودرة التنزيل وغرة التأويل فى الآيات المتشابهات ، وشرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وإبطال القياس ، وشرح القانون لابن سينا ، والبيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان ، وتعجيز الفلاسفة ، ورسالة الجوهر ، ورسالة الحدوث ، وكتاب الملل والنحل ، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين فى علم الكلام ، وشرح المفصل للزمخشرى

تفسيره : ـ وقد أثرت العلوم العقلية على الرازى فى تفسيره ، فمزجه بخليط من الطب والمنطق والفلسفة والحكمة ، وخرج به عن معانى القرآن وروح آياته ، وحمّل نصوص الكتاب ما لم تنزل له من مسائل العلوم العقلية واصطلاحاتها العلمية ، ففقد كتابه بهذا روحانية التفسير وهداية الإسلام ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شىء إلا التفسير ، كما ذكرنا آنفا

الزمخشرى

نسبه وحياته : ـ هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمى الزمخشرى ـ ولد فى السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦٧ هـ سبع وستين وأربعمائة بزمخشر ، وهى قرية كبيرة من قرى خوارزم ، وتلقى العلم فى بلاده ، ورحل إلى بخارى فى طلبه ، وأخذ الأدب عن شيخه منصور أبى مضر ، ثم رحل إلى مكة وجاور بها زمانا ، فقيل له « جار الله » وبها ألف كتابه فى التفسير « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » وتوفى الزمخشرى سنة ٥٣٨ هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة ، بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة ، ورثاه بعضهم بأبيات منها : فأرض مكة تذرى الدمع مقلتها حزنا لفرقة جار الله محمود

علمه ومؤلفاته : ـ والزمخشرى إمام من أئمة اللغة والمعانى والبيان ، وكثيرا ما يجد القارئ فى كتب النحو والبلاغة استشهادات له من كتبه للاحتجاج بها ، فيقولون : قال الزمخشرى فى كشافه ، أو فى أساس البلاغة ، وهو صاحب رأى وحجة فى كثير من مسائل العربية ، وليس من هؤلاء النفر الذين ينهجون نهج غيرهم فيجمعون

وينقلون ، ولـكنه صاحب رأى يقتفى غيره أثره وينقل عنه ، وله تصانيف فى الحديث والتفسير والنحو واللغة والمعانى والبيان وغير ذلك ، منها : كتابه فى تفسير القرآن « الكشاف » ، والفائق فى تفسير الحديث ، والمنهاج فى الأصول ، والمفصل فى النحو ، وأساس البلاغة فى اللغة ، ورءوس المسائل الفقهية

مذهبه وعقيدته : ـ والزمخشرى حنفى المذهب ، معتزلى العقيدة ، يؤول الآيات وفق مذهبه وعقيدته بلحن لا يدركه إلا الخاصة ، ويسمى المعتزلة إخوانه فى الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية

تفسيره : ـ وكتاب الكشاف للزمخشرى من أشهر كتب المفسرين بالرأى ، الماهرين فى اللغة ، ينقل عنه الألوسى ، وأبو السعود ، والنسفى ، وغيرهم من المفسرين بدون نسبة إليه ، واعتزالياته فى التفسير قد تولى التنقيب عنها العلامة أحمد المنير . وسماها بالانتصاف ، وفيها يناقش الزمخشرى فيما أورده من العقائد على مذهب المعتزلة ويورد ما يقابلها ، كما يناقشه فى كثير من أبواب اللغة ، وقد طبعت المكتبة التجارية بمصر الكشاف طبعة أخيرة رتبها مصطفى حسين أحمد ، وذيلت بأربعة كتب ، الأول : الانتصاف السابق ، والثانى : الكافى الشاف فى تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر العسقلانى ، والثالث : حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقى على تفسير الكشاف (كالانتصاف) ، والرابع : مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف للمرزوقى المذكور ـ وقد ضمن تفسيره كثيرا من عقائد المعتزلة على طريق الإشارة ، وقد ذكرنا قبل ما نقل عن البلقينى أنه قال : استخرجت من الكشاف اعتزالا بالمناقيش

الشوكانى

نسبه وحياته : ـ هو القاضى محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى ثم الصنعانى الإمام المجتهد ، ناصر السنة ، وقامع البدعة

ولد سنة ١١٧٣ هـ ثلاث وسبعين ومائة وألف فى بلده هجرة شوكان ، ونشأ بصنعاء ، فقرأ القرآن ، وأخذ يطلب العلم ، ويسمع من العلماء الأعلام ، وحفظ

كثيراً من متون النحو والصرف والبلاغة ، والأصول وآداب البحث والمناظرة ، حتى صار إماما يشار إليه بالبنان ، وظل مكبا على العلم قراءة وتدريسا إلى أن توفى سنة ١٢٥٠ هـ خمسين ومائتين وألف

مذهبه وعقيدته :ـ تفقه على مذهب الإمام زيد ، وبرع فيه ، وألف وأفتى ، وطلب الحديث ، وفاق فيه أهل زمانه حتى خلع ربقة التقليد ، وصار مناصراً للسنة ومناوئاً لأعدائها ، وكان يرى تحريم التقليد حتى ألف فى ذلك رسالة أسماها « القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد »

مؤلفاته :ـ له مؤلفات عديدة فى شتى الفنون منها تفسيره « فتح القدير » وشرحه نيل الأوطار على منتقى الأخبار المجد بن تيمية جد شيخ الإسلام . وهو من خير ما كتب فى الحديث على أبواب الفقه ، وكتابه فى الأصول « إرشاد الفحول » وفتاواه المسماة « بالفتح الربانى »

تفسيره :ـ وفتح القدير للشوكانى تفسير يجمع بين الرواية والاستنباط وفقه نصوص الآيات ، اعتمد فيه على فحول المفسرين كالنحاس ، وابن عطية ، والقرطبى . وهو متداول فى جهات كثيرة من أنحاء العالم الإسلامى

١٨
التفسير بالأثر والتفسير بالرأى

التفسير بالأثر : ـ هو ما يكون مسلكه الاعتماد على صحيح المنقول بالمراتب التى ذكرت سابقاً فى شروط المفسر ، من تفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسنة لأنها جاءت مبينة لكتاب الله ، أو بما روى عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله ، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالبا عن الصحابة . وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة فى معنى الآية فيذكرها ، ولا يجتهد فى بيان معنى من غير أصل ، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة فى معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح ، قال ابن تيمية : « يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة ، وقال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا ، رواه أحمد فى مسنده ، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، أخرجه مالك فى الموطأ ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته ﴾ وقال ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم » ؟

ومن التابعين من أخذ التفسير كله عن الصحابة . وقد مر فى ترجمة مجاهد أنه قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أستوقفه عند كل آية وأسأله عنها

الاختلاف فيه : ـ

والتفسير بالأثر يدور على رواية ما نقل عن صدر هذه الأمة ، وكان الاختلاف بينهم قليلا جداً بالنسبة إلى ما بعدهم ، وأكثره لا يعدو أن يكون خلافا فى التعبير مع اتحاد المعنى ، أو يكون من تفسير العام ببعض أفراده على طريق التمثيل . قال ابن تيمية : « والخلاف بين السلف فى التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وذلك نوعان :

أحدهما : أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم « الصراط المستقيم : قال بعضهم : القرآن أى اتباعه . وقال بعضهم : الإسلام ، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر

الثانى : أن يذكر كل منهما من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، ومثاله ما نقل فى قوله تعالى ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ٠ ٣٢ ـ فاطر ﴾ قيل : السابق الذى يصلى فى أول الوقت ، والمقتصد : الذى يصلى فى أثنائه ، والظالم لنفسه : الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار ـ وقيل : السابق : المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد : الذى يؤدى الزكاة المفروضة فقط ، والظالم : مانع الزكاة »

وقد يكون الاختلاف لاحتمال اللفظ الأمرين ، كلفظ (عسعس) الذى يراد به إقبال الليل وإدباره ، أو لأن الألفاظ التى عبر بها عن المعانى متقاربة ، كما إذا فسر بعضهم (تبسل) بتحبس ، وبعضهم بترتهن ، لأن كلا منهما قريب من الآخر

تجنب الإسرائيليات

وربما كان الاختلاف فيما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته مما وقع فيه بعض النقلة فى نقل إسرائيليات عن أهل الكتاب ، كاختلافهم فى أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعددهم ، وقد قال الله ﴿ قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار

فيهم إلا مراء ظاهرا « ٢٢ ـ الكهف ﴾ واختلافهم فى قدر سفينه نوح وخشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، وفى أسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وفى نوع شجرة عصا موسى ، ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان منه منقولا نقلا صحيحا عن النبى ﷺ قبل ، وإلا توقفنا عنه ، وإن كانت النفس تسكن إلى ما نقل عن الصحابة ، لأن نقلهم عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين

حكم التفسير بالأثر

التفسير بالأثر هو الذى يجب اتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة ، وهو آمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ فى كتاب الله ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله »

فالذى تعرفه العرب هو الذى يرجع فيه الى لسانهم ببيان اللغة

والذى لا يعذر أحد بجهله هو ما يتبادر فهم معناه إلى الأذهان من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ولا لبس فيها ، فكل امرىء يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله « ١٩ ـ القتال ﴾ وإن لم يعلم أن هذه العبارة وردت بطريق النفى والاستثناء فهى دالة على الحصر

وأما مالا يعلمه إلا الله فهو المغيبات : كحقيقة قيام الساعة ، وحقيقة الروح

وأما ما يعلمه العلماء فهو الذى يرجع إلى اجتهادهم المعتمد على الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى : من بيان مجمل . أو تخصيص عام . أو نحو ذلك

التفسير بالرأى

التفسير بالرأى : هو ما يلجأ فيه المفسر إلى الاعتماد فى بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأى المجرد ـ وليس منه الفهم الذى يتفق مع روح الشريعة ـ ويستند إلى نصوصها ، فالرأى المجرد الذى لا شاهد له مدعاة للشطط فى كتاب الله ، وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب

باطلة ، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم ، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم ، كتفسير ابن كيسان والجبائى والزمخشرى وأمثالهم ـ ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس مذهبه فى كلام يروج على كثير من الناس ، كما صنع صاحب الكشاف فى اعتزالياته ، وحال بعضهم أخف من بعض ، فمنهم طوائف من أهل الكلام أولت آيات الصفات بما يتفق مع مذهبها ، وهؤلاء أقرب إلى أهل السنة من المعتزلة ، إلا أنهم حين جاءوا بما يخالف مذهب الصحابة والتابعين فقد شاركوا المعتزلة وغيرهم من أهل البدع

حكم التفسير بالرأى

وتفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه ، قال تعالى ﴿ ولا تقفُ ما ليس لك به علم ٠ ٣٦ ـ الإسراء ﴾ وقال ﷺ « من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود ، وقال الترمذى هذا حديث حسن ، وفى لفظ لهم « من قال فى القرآن برأيه فقد أخطأ » وفى لفظ آخر « من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ » ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به . فقد روى مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب ، أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : « إنا لا نقول فى القرآن شيئا » ـ وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه سئل عن الأبّ فى قوله تعالى ﴿ وفاكهة وأبا ٠ ٣١ ـ عبس ﴾ فقال : « أى سماء تظلنى ؟ وأى أرض تقلنى ؟ إذا قلت فى كلام الله ما لا أعلم » ورواه ابن أبى شيبة

فهذه الآثار وماشاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم فيه ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه ، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ـ ولا منافاة ـ لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه . وهذا هو الواجب على كل إنسان . ويكون الأمر أشد نكيرا لو ترك التفسير المأثور الصحيح وعدل عنه إلى القول برأيه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وفى الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف

ذلك كان مخطئاً بل مبتدعاً ، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسوله ﷺ

تفسير المتصوفة

أما ما تكلم به الصوفيه فى القرآن مدعين أن النصوص ليست على ظواهرها فليس بتفسير ، ومنهم من يدعى أن آيات القرآن فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك . وقد يكون لبعض ذلك الكلام وجه إذا كان المعنى صحيحا وجاء موافقاً لما تهدف إليه الآية ، قال ابن القيم : « وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول . تفسير على اللفظ : وهو الذى ينحو إليه المتأخرون . وتفسير على المعنى : وهو الذى يذكره السلف ، وتفسير على الإشارة والقياس : وهو الذى ينحو إليه كثير من الصوفيه وغيرهم ، وهذا لا بأس به بأربعة شروط : ١ ـ ألا يناقض معنى الآية ٢ ـ وأن يكون معنى صحيحا فى نفسه ٣ ـ وأن يكون فى اللفظ إشعار به ٤ ـ وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم . فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطا حسنا »

أشهر الكتب المؤلفة فى التفسير بالأثر

١ ـ التفسير المنسوب إلى ابن عباس — مختصر ممزوج
٢ ـ تفسير ابن عيينة ٣ ـ تفسير ابن أبى حاتم
٤ ـ تفسير أبى الشيخ ابن حبان ٥ ـ تفسير ابن عطية
٦ ـ تفسير ابن جرير الطبرى (جامع البيان فى تفسير القرآن)
٧ ـ تفسير ابن أبى شيبة ٨ ـ تفسير الحافظ ابن كثير
٩ ـ تفسير البغوى (معالم التنزيل) ١٠ ـ تفسير الشوكانى (فتح القدير)

أشهر الكتب المؤلفة فى التفسير بالرأى

١ ـ تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم ٢ ـ تفسير أبى على الجبائى

٣ ـ تفسير عبد الجبار ٤ ـ تفسير الزمخشرى (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل، فى وجوه التأويل)

٥ ـ تفسير فخر الدين الرازى (مفاتيح الغيب ، المسمى التفسير الكبير المشهور بتفسير الرازى)

٦ ـ تفسير ابن فورك ٧ ـ تفسير النسفى

٨ ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)

٩ ـ تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

١٠ ـ تفسير الألوسى (روح المعانى) ١١ ـ تفسير أبى حيان (البحر المحيط)

١٢ ـ تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل)

١٣ ـ تفسير الجلالين ـ من أوله إلى آخر ـ سورة الإسراء للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلى، ولما مات كمله الشيخ المتبحر جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، وبعض هذه التفاسير أكثر تداولا من البعض الآخر

وصلى الله على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

مناع القطان

المدرس بكلية الشريعة بالرياض سنة ١٣٧٨ هـ

فهرس الكتاب

المراجع

١ ـ الاتقان فى علوم القرآن — للسيوطى
٢ ـ مذكرة كلية أصول الدين فى علوم القرآن — للأستاذ محمد سلامة
٣ ـ روضة الناظر — لابن قدامة
٤ ـ فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت — لابن عبد الشكور
٥ ـ المستصفى — للغزالى
٦ ـ مفردات غريب القرآن — للراغب الأصبهانى
٧ ـ القاموس المحيط — للفيروز آبادى
٨ ـ تفسير ابن كثير
٩ ـ الكشاف — للزمخشرى
١٠ ـ العقل والنقل — لابن تيمية
١١ ـ الرد على المنطقيين — « «
١٢ ـ اقتضاء الصراط المستقيم — « «
١٣ ـ التدمرية — « «
١٤ ـ الإكليل فى المتشابه والتأويل — « «
١٥ ـ إعلام الموقعين — لابن القيم
١٦ ـ أقسام القرآن — « «
١٧ ـ إعجاز القرآن — لمصطفى صادق الرافعى
١٨ ـ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون — لحاجى خليفة
١٩ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة — لابن حجر العسقلانى
٢٠ ـ تهذيب التهذيب — « «
٢١ ـ هدية العارفين — لإسماعيل البغدادى